فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

— قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق —

٢٩ ذي الحجة ١٣٣٩ ـ ١٩ السنبلة (ص٣) سنة ١٢٩٩ هش ٢ سبتمبر سنة ١٩٢١

تفسير القرآن الحكيم

(١٥١) قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ : أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ،
وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ
بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥٢) وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا
قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

(١٥٣) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

بين الله تعالى فيما قبل هذه الآيات حجته البالغة على المشركين الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه عليهم ربهم ودحض شبهتهم التي احتجوا بها على شركهم به وافترائهم عليه . بعد ان بين لهم جميع ما حرمه على عباده من الطعام — ثم بين في هذه الآيات أصول المحرمات وجامعها في الاعمال والاقوال وما يقابلها من أصول الفضائل والبر، فقال عز من قائل :

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المتبعين للخرص والتخمين في دينهم والهوى فيما يحرمون ويحلون لا نفسهم: تعالوا الي واقبلوا علي أتل واقرأ لكم ما حرم ربكم عليكم فيما أوحاه الي من العلم الصحيح وحق اليقين ، فان الرب وحده هو الذي له حق التحريم والتشريع، وانما انا مبلغ عنه باذنه، أرسلني لذلك وعلمني على أميتي ما لم أكن أعلمه وأيدني بالآيات البينات. وقد خص التحريم بالذكر مع ان الوصايا التي بينتها التلاوة أعم لمناسبة ما سبق من انكار ان يحرم غير الله ولان بيان أصول المحرمات كلها يستلزم حل ماعداها لانه الاصل وقد صرح بأصول الواجبات من هذا الحلال العام. وأصل (تعالوا) و(تعال) الامر ممن كان في مكان عال لمن دونه بان يتعالى ويصعد اليه ، ثم توسعوا فيه فاستعملوه في الامر في الاقبال مطلقاً واستعمال المقيد في المطلق من ضروب المجاز المرسل الا اذا كثر فلم يحتج الى قرينة ولم ينظر فيه الى علاقة كهذه الكلمة ولاسياقي غير هذا الموضع . وهي فيه خطاب ممن هو في أعلى مكان من العلم والهدى لمن هم في أسفل درك من الجهل والضلال ، عبدة الاصنام ، ومتبعي الظنون والاوهام

وقوله ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ شروع في بيان ما حرم الرب وما أوصى به من البر، وقد أورد بعضه بصيغة النهي عن الشيء وبعضه بصيغة الامر بضده حسب ما تقتضيه البلاغة كما سيأتي . وأن تفسيرية وندع النحاة في اضطرابهم واختلافهم في تطبيق ما في حيزها من النهي والامر على قواعدهم فنحن لا يعنينا

الا فهم المعاني من الكلام بغير تكلف، وما وافق القرآن من قواعدهم كان صحيحا مطردا وما لم يوافقه فهو غير صحيح او غير مطرد، وسنريك فيه من البيان، ما يغنيك عن تحقيق السعد وحل اشكالات أبي حيان ،

بدأ تعالى هذه الوصايا بأ كبر المحرمات وافظعها وأشدها افسادا للعقل والفطرة وهو الشرك بالله تعالى سواءكان باتخاذ الانداد له او الشفعاء المؤثرين في ارادته المصرفين لها في الاعمال وما يذكر بهم من صور وتماثيل واصنام او قبور — او كان باتخاذ الأرباب الذين يشرعون الاحكام ، ويتحكمون في الحلال والحرام ،وكل ذلك واضح من الآيات السابقة وتفسيرها . وتقدير الكلام مع عد الوصايا: اول ما أتلوه عليكم في بيان هذه المحرمات وما يقابلها من الواجبات - أو - أول ماوصاكم به تعالى من ذلك كما يدل عليه لاحق الكلام - هو ان لاتشركوا بالله شيئا ما من الاشياء وان كانت عظيمة في الخلق كالشمس والقمر والكواكب، او عظيمة في القدر كالملائكة والانبياء والصالحين ، فانها عظم الأشياء العاقلة وغير العاقلة بنسبة بعضها الى بعض وذلك لا يخرجها عن كونها من خلق الله ومسخرة بقدرته وارادته وعن كون العاقل منها كالبشر والملائكة من عبيده (ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا) — او أن لاتشركوا به شيئا من الشرك صغيره او كبيره - ومقابله على الوجهين ان تعبدوه وحده بما شرعه لكم على لسان رسوله لا باهوائكم ولا بأهواء أحد من الخلق امثالكم، وان تخلصوا له العبادة فلا تتوجهوا فيها الى غيره ولو على ان يكون وسيلة اليه. وهذا هو المقصود بالذات الذي دعا اليه جميع الرسل وهو لازم النهي عن الشرك الذي عبر به هنا لان الخطاب موجه الى المشركين أولا وبالذات وهو أول مطلوب منهم

﴿ وبالوالدين احسانا ﴾ اي والثاني مما أتلوه عليكم أوَمما وصاكم به ربكم ان تحسنوا بالوالدين احسانا تاما كاملا لاتدخروا فيه وسعا ، ولا تألوا فيه جهدا ، وهذا يستلزم ترك الاساءة وان صغرت فكيف بالعقوق المقابل لغاية الاحسان وهو من أكبر كبائر المحرمات . وقد تكرر في القرآن القران بين التوحيد والنهي عن الشرك وبين الامر بالاحسان للوالدين ، وتقدم بعضه في سورة البقرة والنساء وسيأتي اوسع تفصيل في وصايا سورة الاسراء (او بني اسرائيل) التي يعني هذه الوصايا في هذه السورة وفيه النهي عن قول « أف » لهما . وقد اختير في هذه الآية وامثالها الامر بالواجب من الاحسان على النهي عن مقابله المحرم وهو

الاساءة مطلقا للايذان بأن الاساءة اليهما ليس من شأنها أن تقع فيحتاج الى التصريح بالنهي عنها في مقام الايجاز لأنها خلاف ما تقتضي الفطرة السليمة والآداب المرعية عند جميع الامم . وقد سبق في تفسير مثل هذه الجملة ان الاحسان يتعدى بالباء والى فيقال أحسن به وأحسن اليه، والاول أبلغ ، فهو بالوالدين وذي القربى أليق ، لان من احسنت به هو من يتصل به برك وحسن معاملتك ويلتصق به مباشرة على مقربة منك وعدم انفصال عنك — وأما من أحسنت اليه فهو الذي تسدي اليه برك ولو على بعد أو بالواسطة اذ هو شيء يساق اليه سوقا . ولم ترد هذه التعدية في التنزيل الا في تعبيرين في مقامين (احدهما) التعبير بالفعل حكاية عن يوسف عليه السلام في سورته وهو قوله لابيه واخوته (هذا تأويل رؤياي من قبل قدجعلها ربي حقا وقد احسن بي اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو) (والثاني) التعبير بالمصدر المفيد تأكيد والمبالغة في مقام الاحسان بالوالدين في اربع سور البقرة والنساء وقد عطف فيهما ذو القربى على الوالدين بالتبع ، والانعام والاسراء . وفي سورة الاحقاف (ووصينا الانسان بوالديه احسانا) كما قرأه الكوفيون من السبعة وقرأه الباقون (حسنا) كآية سورة العنكبوت التي رويت كلمة احسانا فيها من الشواذ . والظاهر ان الباء فيهما متعلقة بوصينا

ولو لم يرد في التنزيل الا قوله تعالى (وبالوالدين احسانا) ولو غير مكرر لكفى في الدلالة على عظم عناية الشرع بأمر الوالدين بما تدل عليه الصيغة والتعدية فكيف وقد قرنه بعبادته وجعله ثانيها في الوصايا وأكده بما أكده به في سورة الاسراء كما قرن شكرهما بشكره في وصية سورة لقمان فقال (ان اشكر لي ولوالديك) وورد في معنى التنزيل عدة أحاديث نكتفي منها بحديث عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) قال سألت رسول الله (ص) اي العمل افضل ؟ قال « الصلاة على وقتها » وفي رواية لوقتها، قلت ثم أي ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أي؟ قال « الجهاد في سبيل الله » فقدم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله الذي هو أكبر الحقوق العامة على الانسان . ذلك كله بأن حق الوالدين على الولد أكبر من جميع حقوق الخلق عليه ، وعاطفة البنوة وثمرتها من أقوى غرائز الفطرة ، فمن قصر في بر والديه والاحسان بهما كان فاسد الفطرة مضيعا للحقوق كلها فلا يرجى منه خير لاحد. وقد بالغ بعض العلماء في الكلام على بر الوالدين

حتى جعلوا من مقتضى الوصية بهما ان يكون الولد معهما كالعبد الذليل مع السيد القاسي الظالم ، وقد اطمعوا بذلك الآباء الجاهلين المريضي الاخلاق حتى جرءوا ذا الدين منهم على أشد مما يتجرأ عليه ضعفاء الدين من القسوة على الاولاد واهانتهم واذلالهم، وهذا مفسدة كبيرة لتربية الاولاد في الصغر ، والجاء لهم الى العقوق في الكبر ، والى ظلم أولادهم كما ظلمهم آباؤهم ، وحينئذ يكونون من أظلم الناس للناس ، وقد فصلنا القول في ظلم الوالدين للاولاد وتحكمهما في شؤونهم ولا سيما تزويجهم بمن يكرهون في تفسير آية النساء (ص ٨٥ ج ٥ تفسير) وكم أفسدت الامهات بناتهن على أزواجهن . والصواب انه يجب على الوالدين تربية الاولاد على حبهما واحترامهما احترام المحبة والكرامة لا احترام الخوف والرهبة . وسنفصل ذلك في تفسير آيات سورة الاسراء ان احيانا الله تعالى ووفقنا

﴿ ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ﴾ أي والثالث مما اتلوه عليكم مما وصاكم به ربكم أن لا تقتلوا أولادكم الصغار من فقر واقع بكم لئلا تروهم جياعا في حجوركم، فانه هو الذي يرزقكم واياهم اي ويرزقهم بالتبع لكم. فالجملة تعليل للنهي . وسيأتي في سورة الاسراء (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم) فقدم رزق الاولاد هنالك على رزق الوالدين عكس ما هنا لانه متعلق بالفقر المتوقع في المستقبل الذي يكون الاولاد فيه كبارا كاسبين وقد يصير الوالدون في حاجة اليهم لعجزهم عن الكسب بالكبر. ففرق في تعليل النهي في الآيتين بين الفقر الواقع والفقر المتوقع فقدم في كل منهما ضمان رزق الكاسب للاشارة الى انه تعالى جعل كسب العباد سببا للرزق خلافا لمن يزهدونهم في العمل بشبهة كفالته تعالى لرزقهم. وقد ذكرنا هذه النكتة من بلاغة القرآن في تفسير (٦ : ١٣٧ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم) (ص ١٢٤ ج ٨ تفسير)

﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي والرابع مما اتلوه عليكم من وصايا ربكم ان لا تقربوا ما عظم قبحه من الافعال والخصال كالزنا واللواط وقذف المحصنات وكل ما سماه في التنزيل فاحشة فهو مما ثبتت شدة قبحه شرعا وعقلا ولذلك يستتر بفعل الاولين أكثر الذين يقترفونهما وقلما يجاهر بهما الا المستولغ من الفساق الذي لا يبالي ذما ولا عارا اذا كان معه مثله وهو يتبرأ منهما لدى خيار الناس

وفضلائهم، وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا ويمدونه أكبر العار ولا سيما اذا وقع من الحر اثر فكان وقوعه منهن نادرا وانما كان يجاهر به الاماء في حوانيت ومواخير تمتاز بأعلام فيختلف اليها اراذلهم ، واما اشرافهم فيزنون سرا بمن يتخذون من الاخدان كما سبق بيانه في تفسير (محصنات غير مسافحات ولامتخذات اخدان) والخدن الصديق يطلق على الذكر والانثى ، ويعبرون بمصرعن خدن الفاحشة بالرفيقة والرفيق وعن المخادنة بالمرافقة وهو عند فساقهم فاش ولا سيما الاغنياء منهم . روي عن ابن عباس (رض) في تفسير الآية انه قال : كانوا في الجاهلية لايرون بأسا بالزنا في السر ويستقبحونه في العلانية فحرم الله الزنا بالسر والعلانية، أي بهذه الآية ومافي معناها. وليس هذا تخصيصا للفواحش ببعض أفرادها كما ظن بعض المفسرين بل مراده ان الآية دلت على ذلك بعمومها ، وفي رواية عنه من طريق عطاء : ولاتقربوا الفواحش ماظهر (قال) العلانية ، وما بطن - - قال — السر . وعنه أيضا : ما ظهر منها نكاح الامهات والبنات وما بطن الزنا. واخرج ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين ان رسول الله (ص) قال « أرأيتم الزاني والسارق وشارب الخمر ما تقولون فيهم » ؟ — قالوا الله ورسوله أعلم — قال « هن فواحش وفيهن عقوبة » واخرج ابن أبي حاتم عن أبي حازم الرهاوي انه سمع مولاه يقول كان رسول الله (ص) يقول « مسألة الناس من الفواحش » واخرج أيضا عن يحيى بن جابر قال : بلغني ان من الفواحش التي نهى الله عنها في كتابه تزويج الرجل المرأة فاذا نفضت له ولدها طلقها من غير ريبة . نفضت له ولدها ولدت له . وأخرج هو وأبو الشيخ عن عكرمة : ما ظهر منها ظلم الناس وما بطن الزنا والسرقة ، أي لان الناس يأتونهما في الخفاء . ذكر ذلك كله في الدر المنثور فدل على ان مفسري السلف في جملتهم يحملون الفواحش على عمومها وما ذكروه منها أمثلة لا تخصيص

وما تقدم في تفسير (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) من الوجوه في ظاهره وباطنه يأتي مثله هنا فيراجع في تفسير الآية (١١٩) من هذه السورة (ص ٢١ ج ٨ تفسير) الا أن الاثم اعم من الفاحشة لانه يشمل كل ضار من الصغائر والكبائر فحش قبحه أم لا ولذلك قال تعالى في صفة المحسنين من سورة النجم (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الااللمم) وقال في آية الاعراف (قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله

مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون) قيل انها جمعت أصول المحرمات الكلية . وفي حديث عبدالله بن مسعود مرفوعا « لا أحد اغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن » رواه الشيخان في صحيحيهما

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ﴾ أي والخامس مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم أن لا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها بالاسلام أو عقد الذمة أو العهد أو الاستئمان فيدخل في عمومها كل أحد الا الحربي ، وقوله الا بالحق هو مايبيح القتل شرعا كقتل القاتل عمدا بشرطه . ويطلق العهد على الثلاثة ومنه ماورد في النهي عن قتل المعاهد وايذائه كقوله صلى الله عليه وآله وسلم « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » رواه البخاري من حديث عبدالله بن عمر (رض) وقوله (ص) « من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفا » رواه الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه من حديث أبي هريرة .

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ الاشارة الى الوصايا الخمس التي تليت في هذه الآية واللام فيها للدلالة على بعد مدى ماتدل عليه الوصايا المشار اليها من الحكم والاحكام والمصالح الدنيوية والاخروية - أو بعدها عن متناول أوضاع الجهل والجاهلية ولا سيما مع الامية . والوصية مايعهد الى الانسان ان يعمله من خير أو ترك شر مما يرجى تأثيره ، ويقال أوصاه ووصاه . وجعلها الراغب عبارة مما يطلب من عمل مقترنا بوعظ . وأصل معنى وصى الثلاثي وصل ، ومواصاة الشيء مواصلته وهو خاص بالنافع كالمطر والنبات . يقال وصى النبت اتصل وكثر ، وأرض واصية النبات . وقال ابن دريد في وصف صيب المطر

جون اعارته الجنوب جانبا منها وواصت صوبه يد الصبا

أي وصاكم الله بذلك لما فيه من اعدادكم وباعث الرجاء في أنفسكم لان تعقلوا ما فيه الخير والمنفعة في ترك مانهى عنه وفعل ما أمر به فان ذلك مما تدركه العقول الصحيحة بأدنى تأمل . وفيه دليل على الحسن الذاتي وادراك العقول له بنظرها ، واذا هي عقلت ذلك كان عاقلا لها ومانعا من المخالفة . وفيه تعريض بأن ماهم عليه من الشرك وتحريم السوائب وغيرها مما لا تعقل له فائدة ، ولا تظهر للانظار الصحيحة فيه مصلحة

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن ﴾ أي والسادس مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم فيما حرم وأوجب عليكم أن لا تقربوا مال اليتيم اذا وليتم أمره وتعاملتم به ولو بواسطة وصيه أووليه الا بالفعلة أو الافعال التي هي أحسن مايفعل بماله من حفظه وتثميره وتنميته ورجحان مصلحته والانفاق منه على تربيته وتعليمه مايصلح به معاشه ومعاده. والنهي عن قرب الشيء أبلغ من النهي عنه لانه يتضمن النهي عن الاسباب والوسائل التي تؤدي اليه وتوقع فيه وعن الشبهات التي تحتمل التأويل فيه فيحذرها التقي اذ يعدها هضما لحق اليتيم ويقتحمها الطامع اذ يراها بالتأويل مما يحل له لعدم ضررها باليتيم أو لرجحان نفعها له على ضررها، كان يأكل من ماله شيئا بوسيلة له فيه ربح من جهة أخرى في عمل لولاه لم يربح ولم يخسر. وقد تقدم في تفسير الآيات المفصلة في اليتامى من أول سورة النساء وتفسير (٢: ٢٢٠ ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم) من البقرة مايغني عن التطويل هنا في تحرير مسألة مال اليتيم ومخالطته في المعيشة والمعاملة. (راجع ص٣٤٦ ج ٢ تفسير)

وقوله تعالى ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ هو غاية للنهي عن هذا القرب لماله وما فيه من المبالغة في الترهيب عن التعامل فيه — أو غاية لما تضمنه الاستثناء وهو مايقابل النهي من ايجاب حفظ ماله حتى منه هو فان الولي أو الوصي لا يجوز له ان يسمح لليتيم بتبديد شيء من ماله واضاعته أو الاسراف فيه. وبلوغ الاشد عبارة عن بلوغه سن الرشد والقوة الذي يخرج به عن كونه يتيما أو سفيها أو ضعيفا، وقد اختلف أهل اللغة هل هو مفرد اوجمع لا واحد له او له واحد قال في اللسان والاشد مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة. وهو موافق لتفسيرنا اوحجة له ونقل عن ابن سيده: بلغ الرجل أشده اذا اكتهل، ونقل عن علماء اللغة والشرع أقوالا في لفظه ومعناه بلغت ثلثي ورقة منه وملخص المعنى ان له طرفين أدناهما الاحتلام الذي هو مبدأ سن القوة والرشد ونهايته سن الاربعين وهي الكهولة اذا اجتمعت للمرء حنكته وتمام عقله — قال — فبلوغ الاشد محصور الاول محصور النهاية غير محصور ماين ذلك

قال الشعبي ومالك وآخرون من علماء السلف يعني حتى يحتلم، والاحتلام يكون غالبا بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة: وقال السدي الاشد سن الثلاثين وقيل سن الاربعين وقيل الستين. والاخير باطل وما قبله مأخوذ من قوله تعالى

(حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) ولكن قال المفسرون هذا لا يظهر هنا .

وأقول ان المراد بالنهي عن قرب مال اليتيم النهي كل تعد عليه وهضم له من الاوصياء وغيرهم من الناس خلافاً لمن جعل الخطاب فيه للاولياء والاوصياء خاصة ، وحينئذ يظهر جعل «حتى» غاية للنهي وجعل الاشد بمعناه اللغوي وهو سن القوة البدنية والعقلية بالتجارب ، والحديث العهد بالاحتلام يكون ضعيف الرأي قليل التجارب فيخدع كثيرا . وقد كان الناس في الجاهلية كأهل هذا العصر من أصحاب الافكار المادية لا يحترمون الا القوة ولا يعرفون الحق الا للاقوياء فلذلك بالغ الشرع في الوصية بالضعيفين المرأة واليتيم . وانما كانت القوة التي يحفظ بها المرء ماله في ذلك الزمن قوة البدن مع الرشد العقلي وهو قلما يحصل بمجرد البلوغ ، وأما هذا الزمان فلا يقدر على حفظ ماله فيه الا من كان رشيدا في أخلاقه وعقله وتجاربه لكثرة الغش والحيل ، وان سفه الشبان الوارثين في مصر مضرب المثل ، فأكثر الشبان من أبناء الاغنياء مسرفون في الشهوات فتى مات من يرثونه أقبل على معاشرتهم اخدان الفسق وسماسرته ومنهومو القمار فلا يتركونهم الا فقراء منبوذين ، وقلما يستيقظ أحدهم من غفلته الا في سن الكهولة التي يكمل فيها العقل وتعرف تكاليف الحياة الكثيرة ويهتم فيها بأمر النسل ، وقد اشترط الشرع لايتاء اليتامى أموالهم سن الحلم والرشد معا وظهور رشدهم في المعاملات المالية بالاختبار بقوله تعالى (وابتلوا اليتامى – الى قوله – فادفعوا اليهم اموالهم) وهذا خطاب للاولياء والاوصياء .

﴿ واوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ أي والسابع مما اتلوه عليكم من وصايا ربكم ان اوفوا الكيل اذا كلتم للناس او اكتلتم عليهم لا تفسكم والميزان اذا وزنتم لا نفسكم فيما تبتاعون او لغيركم فيما تبيعون فليكن كل ذلك وافياً تاما بالقسط اي العدل ، ولا تكونوا من المطففين (الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم اوزنوهم يخسرون) اي ينقصون الكيل والوزن وهم الذين توعدهم الله بالويل والهلاك في اول السورة التي سميت باسمهم . فهذا هو النهي المقابل للامر بالايفاء وهو لازم له ، فالجملة موجزة فكلمة بالقسط هي التي بينت ان الايفاء يجب ان يكون من الجانبين في الحالين أي اوفوا مقسطين او ملابسين للقسط متحرين له ، وهو يقتضي طرفين يقسط بينهما ، فدل على انه يجب على الانسان ان يرضى لغيره ما يرضاه لنفسه ، وأين الذين يدعون اتباع القرآن .

في هـذا الزمان من هذه الوصية ؛ لا تكاد تجد في المئة منهم في مثل بلادنا هذه بائعا يوفي الكيل والميزان لمبتاع يسلم الامر له ويرضى بذمته .

﴿ لا نكلف نفسا الا وسعها ﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان حكم مايعرض لاهل الدين والورع من الامر بالقسط في الايفاء فان اقامة القسط أمر دقيق جدا لا يتحقق في كل مكيل وموزون الا اذا كان بموازين كميزان الذهب الذي يضبط الوزن بالحبة ومادونها . وفي التزام ذلك في بيع الحبوب والخضر والفاكهة حرج عظيم يخطر في بال الورع السؤال عن حكمه، فكان جوابه ان الله تعالى لا يكلف نفسا الا مايسعها فعله بأن تأتيه بغير عسر ولا حرج ، فهو لا يكلف من يشتري او يبيع ماذكر من الاقوات ونحوها ان يزنه أو يكيله بحيث لا يزيد حبة ولا مثقالا بل يكلفه أن يضبط الوزن والكيل له اوعليه على حدسواء بحسب العرف بحيث يكون معتقدا انه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد به عرفا . وقاعدة اليسر وحصر التكليف بمافي وسع المكلف ومايقابله من رفع الحرج ونفي العسر، من أعظم قواعدهذا الشرع، المبني على أقوى أساس من الحق والعدل، فلايساويه فيه قانون من قوانين الخلق ، ولو عمل المسلمون بهذه الوصية لاستقامت أمور معاملاتهم ، وعظمت الثقة والأمانة بينهم . وكانوا حجة على غيرهم من المطففين والمفسدين . وما فسدت أمورهم وقلت ثقتهم بأنفسهم ، وحل محلها ثقتهم بالاجانب الطامعين فيهم ، الا بترك هذه الوصية وأمثالها .ثم تجد بعض المارقين الجاهلين منهم يهذون ويقولون ان ديننا هو الذي أخرنا وقدم غيرنا ! !

وقدقص التنزيل علينا فيما قص من أنباء الامم لنعتبر ونتعظ بهاانه تعالى اهلك قوم شعيب بما كان من ظلمهم وفسادهم ولا سيما التطفيف في الكيل والميزان . وقال الرسول (ص) لاصحاب الكيل والميزان «انكم وليتم أمرا هلكت فيه الامم السالفة قبلكم» رواه الترمذي من حديث ابن عباس مرفوعا بسند فيه راو ضعيف وقال انه روي موقوفا بسند صحيح وروى غيره مايؤيده

﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى ﴾ اي والثامن مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم هو ان تعدلوا في القول اذا قلتم قولا في شهادة او حكم على أحد ولوكان المقول في حقه ذلك القول صاحب قرابة منكم ، فالعدل واجب في الاقوال كما انه واجب في الافعال كالوزن والكيل لانه هو الذي تصلح به شؤون الناس فهو ركن العمران وأساس الملك وقطب رحى النظام للبشر في

جميع أمورهم الاجتماعية فلا يجوز لمؤمن ان يحابي فيه أحداً لقرابته ولا لغير ذلك ، وقد فصل الله تعالى هذا الامر الموجز بآيتين مدنيتين اولاهما قوله (٤ : ١٣٥ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) الخ والثانية قوله (٥ : ٨ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) الخ فيراجع تفسيرهما في أواخر الجزء الخامس ومنتصف الجزء السادس (ص ٢٧٣) من التفسير .

﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أي والتاسع مما أتلوه عليكم مما وصاكم ربكم ان توفوا بعهد الله دون ما خالفه . وهو يشمل ما عهده الله تعالى الى الناس على ألسنة رسله وما آتاهم من العقل والوجدان والفطرة السليمة ، وما يعاهد الناس عليه ، وما يعاهد عليه بعضهم بعضاً في الحق موافقاً للشرع . قال تعالى في النوع الاول (ولقد عهدنا الى آدم) وقال (ألم اعهد اليكم يا بني آدم ان لاتعبدوا الشيطان) وقال في النوع الثاني (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) وقال (اوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) وقال في صفات المؤمنين وهو من النوع الثالث (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) فكل ما وصى الله به وشرعه للناس فهو من عهده اليهم ، ومن آمن برسول من رسله فقد عاهد الله بالايمان به ان يمتثل أمره ونهيه ، وما يلتزمه الانسان من عمل البر بنذر اويمين فهو عهد عاهد ربه عليه كما قال في بعض المنافقين (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ٭ فلما آتاهم من فضله بخلوا به) الخ وكذلك من عاهد الامام وبايعه على الطاعة في المعروف ، او عاهد غيره على القيام بعمل مشروع . والسلطان يعاهد الدول ـ فكل ذلك ما يجب الوفاء به اذا لم يكن معصية ولكن لايعد من عهد الله شيء من ذلك لااذا عقد باسمه أو بالحلف به وكذا ما كان تنفيذاً لشرعه

ومن نكت البلاغة هنا تقديم معمول الفعل « أوفوا » عليه وهو يدل على الحصر ولما لم يظهر الحصر لبعض المفسرين جعلوا التقديم لمجرد الاهتمام الذي هو الاصل في كل ما يقدم على غيره في هذه اللغة ، وهذا عجز منهم ألجأهم اليه تفسيرهم العهد بهذه الوصايا او بكل ما عهد الله الى الناس على ان تدخل هذه الوصايا فيه دخولا أوليا . والاول باطل والثاني قاصر . أما بطلان الاول لان الوفاء بالعهد من الوصايا المقصودة المعدودة وله معنى خاص فلا يصح ان يعمل عين ما قبله — وأما قصور الثاني فظاهر مما ذكرنا من سائر أنواع العهد بالشواهد من القرآن . فالعهد اذاً عام لكل ماشرع الله للناس وكل

ما الزمه الناس مما يرضيه ويوافق شرعه . ويقابله مالا يرضي الله من عهد كنذر الحرام والحلف على فعله ومعاهدة الحربيين وغيرهم على ما فيه ضرر للامة وهضم لمصالحها أو غير ذلك من المعاصي فحصر الله الامر بالوفاء في الاول الذي يرضيه ليخرج منه هذا الاخير الذي يسخطه . ونكتفي من السنة في تعظيم شأن هذه الوصية بحديث عبد الله بن عمرو المرفوع في الصحيحين وغيرهما «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ـ اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر »

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (تذكرون) مخففة من الذكر والباقون بالتشديد من التذكر واصله تتذكرون ، وليس معناهما واحداً كما قيل فان الصيغ من المادة الواحدة تعطي معاني خاصة ويتجوز في بعضها مالا يصح في بعض ، فالذكر يطلق في الاصل على اخطار معنى الشيء أو خطوره في الذهن ويسمى ذكر القلب ، وعلى النطق باللفظ الدال عليه ويسمى ذكر اللسان ، ويستعمل مجازاً بمعنى الصيت والشرف وفسر به قوله تعالى (وانه لذكر لك ولقومك) ويطلق بمعنى العلم وبه يسمى القرآن وغيره من الكتب الالهية ذكراً ، ومنه (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) وأما التذكر فمعناه تكلف ذكر الشيء في القلب والتدرج فيه بفعله المرة بعد المرة ، ويطلق على الاتعاظ ومنه قوله تعالى (وما يتذكر الا من ينيب) وقوله (سيذكر من يخشى) والشواهد عليه في الذكر كثيرة ومثله الادكار (فهل من مدكر) وهو افتعال من الذكر والافتعال يقرب من التفعل . وحكمة القراءتين افادة المعاني التي تدلان عليها من باب الايجاز البليغ

والمعنى ذلكم المتلو عليكم في هذه الآية من الاوامر والنواهي البعيدة مدى الفائدة ومسافة المنفعة لمن قام بها ـ وصاكم الله به في كتابه رجاء أن تذكروا في أنفسكم ما فيهما من الصلاح لكم فيحملكم ذلك على العمل بها ورجاء ان يذكر بعضكم لبعض في التعليم والتواصي الذي أمر الله به بمثل قوله (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فلكل من الذكر النفسي واللساني وجه هنا ولا مانع من الجمع بينهما على مذهب الشافعية المختار عندنا ـ وكذا الجمع بينهما وبين معاني التذكر في القراءة الاخرى ، والمعنى على هذه القراءة وصاكم به رجاء ان يتكلف

ذكر هذه الوصايا وما فيها من المصالح والمنافع من كان كثير النسيان والغفلة أو كثير الشواغل الدنيوية — أو رجاء أن يتذكرها المرء بعد المرة من أراد الانتفاع بها بتلاوة آياتها في الصلاة وغيرها وبغير ذلك — أو رجاء أن يتعظ بها من سمعها وقرأها أو ذكرها أو ذكر بها وبعض هذه الوجوه عام يطلب من كل مسلم وبعضها خاص

﴿ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ اي والعاشر مما اتلوه عليكم من وصايا ربكم هو ان هذا الذي ادعوكم اليه من الدين القويم والشرع الحنيفي العذب المورد السائغ المشرب بما تلوته عليكم من هذه السورة المشتملة على هذه الوصايا التي لا يكابر ذو مسكة من عقل في حسنها وفضلها — او — ان هذا القرآن الذي ادعوكم اليه وادعوكم به الى ما يحييكم هو صراطي ومنهاجي الذي اسلكه الى مرضاة الله تعالى ونيل سعادة الدنيا والآخرة — اشير اليه. مستقيما ظاهر الاستقامة لا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه، فاتبعوه وحده ولا تتبعوا السبل الاخرى التي تخالفه وهي كثيرة فتتفرق بكم عن سبيله بحيث يذهب كل منكم في سبيل ضلالة منها ينتهي بها الى الهلكة اذ ليس بعد الحق الا الضلال، وليس أمام تارك النور الا الظلمات. وقد اضيف الصراط بهذا المعنى الى الله تعالى اذ هو الذي شرعه والى الدعاة اليه والسالكين له من النبيين وغيرهم في سورة الفاتحة. والظاهر ان اضافته هنا الى النبي (ص) لانه هو المخاطب للناس بهذه الوصية وفعلها مسند اليه تعالى بضمير الغيبة.

وقد جمع في هذه الوصية الجامعة بين الامر بالحق والنهي عن مقابله وهو الباطل. قرأ حمزة والكسائي (وإن هذا صراطي) بكسر همزة أن والباقون بفتحها، فأما كسرها فعلى ان الكلام مستأنف في بيان وصية هي أم الوصايا الجامعة لما قبلها ولغيرها — وأما الفتح فعلى تقدير لام التعليل فهو يقول ولأجل ان هذا صراطي مستقيما لا عوج فيه فعليكم ان تتبعوه ان كنتم تؤثرون الاستقامة على الاعوجاج، وترجحون الهدى على الضلال

أخرج أحمد والنسائي والبزار وابو الشيخ والحاكم وصححه وا كثر مصنفي التفسير المأثور عن عبدالله بن مسعود قال: خط رسول الله (ص) خطا بيده ثم قال « هذا سبيل الله مستقيما » ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال « وهذه السبل ليس منها سبيل الا عليه شيطان يدعو اليه » ثم قرأ

(وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) واخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود ان رجلا سأله: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد (ص) في ادناه وطرفه الجنة وعن يمينه جواد (بالتشديد جمع جادة وهي الطريق) وعن يساره جواد وثم رجال يدعون من مر بهم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به الى النار، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به الى الجنة» وروى احمد والترمذي والنسائي عن النواس بن سمعان (رض) مرفوعا «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبتي الصراط سوران فيهما ابواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا، وداع يدعو من جوف الصراط فاذا أراد الانسان ان يفتح شيئا من تلك الابواب قال له ويحك لا تفتحه فانك ان تفتحه تلجه (اي تدخله) فالصراط الاسلام، والسوران حدود الله، والابواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم» وهذا الواعظ هو ما يعبر عنه الناس بالوجدان والضمير

وقد افرد الصراط المستقيم وهو سبيل الله وجمع السبل المخالفة له لان الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الاديان الباطلة من مخترعة وسماوية محرفة ومنسوخة والبدع والشبهات وبها فسر مجاهد هنا والمعاصي كما في حديث النواس بن سمعان. وقد نهى عن التفرق في صراط الحق وسبيله فان التفرق في الدين الواحد هو جعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له ويخطئون ما خالفه ويرمون أتباعه بالجهل والضلال اوالكفر أوالابتداع، وذلك سبب لاضاعة الدين بترك طلب الحق المنزل فيه لان كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ويظهرها على مخالفيها لا في الحق لذاته والاستعانة على استبانته وفهم نصوصه ببحث أي عالم من العلماء بغير تعصب ولا تشيع، والحق لا يمكن ان يكون وقفا محبوسا من عند الله تعالى على عالم معين وعلى أتباعه، فكل باحث من العلماء يخطئ ويصيب وهذا أمر قطعي ثابت بالعقل والنقل والاجماع ولكن جميع المتعصبين للمذاهب الملتزمين لما يخالفون له، ومن كان كذلك لم يكن متبعا لصراط الله الذي هو الحق الواحد وهذا ظاهر فيهم فانهم اذا دعوا الى كتاب والى ماصح من سنة رسوله أعرضوا عنها وآثروا عليهما

قول أي مؤلف لكتاب منتم الى مذاهبهم

ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه هو الحق الموحد لاهل الحق الجامع لكلمتهم ، وتوحيدهم وجمع كلمتهم هو الحافظ للحق المؤيد له والمعز لاهله ـ كان التفرق فيه بما ذكر سببا لضعف المتفرقين وذلهم وضياع حقهم ـ فبهذا التفرق حل بأتباع الانبياء السابقين ماحل من التخاذل والتقاتل والضعف وضياع الحق، وقد اتبع المسلمون سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى حل بهم من الضعف والهوان ما يتألمون منه ويتململون ، ولم يردعهم عن ذلك ما ورد في التحذير منه في كتاب الله تعالى وأحاديث رسوله (ص) وآثار الصحابة والتابعين، ولا ما حل بهم من البلاء المبين ، ولم يبق بينهم وبين من قبلهم فرق الا في أمرين (احدهما) حفظ القرآن من أدنى تغيير وأقل تحريف، وضبط السنة النبوية بما لم يسبق له في أمة من الامم نظير (وثانيهما) وجود طائفة من أهل الحق في كل زمان تدعو الى صراط الله وحده ، وتتبعه بالعمل والحجة ، كما بشر به صلى الله عليه وسلم . ولكن هؤلاء قد قلوا في القرون الاخيرة وكل صلاح واصلاح في الاسلام متوقف على كثرتهم فنسأله تعالى ان يكثرهم في هذا الزمان ويجعلنا منهم فقد بلغ السيل الزبى . روى ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس في قوله (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) وقوله (اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ونحو هذا في القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة واخبرهم انه اما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات.

وقد سبق لنا بحث طويل في بحر هذه المسألة يراجع في مواضعه كتفسير (٣ : ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وما بعدها في أوائل الجزء الرابع (١) وتفسير (٤ : ٦٢ فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) (٢) وتفسير (٤ : ١٦٣ رسلا مبشرين ومنذرين) (٣) وتفسير (٥ : ٣ اليوم اكملت لكم دينكم) (٤) وتفسير (٦ : ٦٥) قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا) وفيه بحث مستفيض في عذاب هذه الامة وتداعي الامم عليها وضعفها بالتفرق في الدين (٥) وغير ذلك مما يعلم

(١) راجع ص (٢٠ ـ ٢٦ و٤٦ و٥٤) وما بعدها من الجزء (٢) راجع آخره في ص ١٩٣ ج ٥ (٣) راجع ص ٧٣ ج ٦ (٤) راجع ص ١٦٦ ج ٦ (٥) ص ٤٩٠ ـ ٥٠٠

من مظانه وفهارس أجزاء التفسير وسيعاد البحث فيه في تفسير (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) من بعد بضع آيات

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ أي ذلكم الامر باتباع صراط الحق المستقيم والنهي عن سبل الضلالات والاباطيل المعوجة وهو جامع الوصايا النافعة البعيد المرمى، الموصل الى مالا يحيط به الوصف من السعادة العظمى، وصاكم الله به ليعدكم ويهيئكم لما يرجى لكل من اتبعه من اتقاء كل ما يشقيه ويرديه في دنياه وآخرته. قال أبو حيان : ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاء النار، اذ من اتبع صراطه نجا النجاة الابدية وحصل على السعادة السرمدية ؛

وأقول ان كلمة التقوى تشمل كل ما يتقى من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه وقد ذكرت في التنزيل في سياق الاوامر والنواهي المختلفة من عبادات ومعاملات وآداب وقتال وسنن اجتماع وطعام وشراب وعشرة وزواج وغير ذلك فهي تفسر في كل موضع بحسبه، كما بيناه من قبل. وهي في هذا الموضع تشمل جميع الانواع لانها جاءت في سياق اتباع صراط الله المستقيم الشامل لجميع أنواع الهداية الشخصية والاجتماعية

وقد أشرت الى موقع ختم الآية التي قبل هذه بالذكر والتذكر وما قبلها بالعقل . وبعد تفسير الآيات كلها راجعت مالدي من كتب التفسير فرأيت السيد الآلوسي قد أتى بما لم يأت به غيره مما قاله علماء البلاغة في نكت هذه الخواتيم للآيات الثلاث وهذا نصه :

وختمت الآية الاولى بقوله سبحانه «لعلكم تعقلون» وهذه بقوله تعالى «لعلكم تذكرون» لان القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الاولاد وقربان الزنا وقتل النفس المحرمة بغير حق (غير) مستنكفين ولا عاقلين قبحها فنهاهم سبحانه لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها وأما حفظ أموال اليتامى عليهم وايفاء الكيل والعدل في القول والوفاء بالعهد فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون ان عرض لهم نسيان قاله القطب الرازي. ثم قال: فان قلت احسان الوالدين من قبيل الثاني أيضا فكيف ذكر من الاول ؟ قلت أعظم النعم على الانسان نعمة الله تعالى ويتلوه نعمة الوالدين

لانهما المؤثران في الظاهر ومنهما نعمة التربية والحفظ عن الهلاك في وقت الصغر فلما نهى عن الكفر بالله تعالى نهى بعده عن الكفران في نعمة الابوين تنبيها على ان القوم لما لم يرتكبوا الكفران فبطريق الاولى ان لا يرتكبوا الكفر .

وقال الامام (الرازي) السبب في ختم كل آية بما ختمت ان التكاليف الخمسة المذكورة في الآية الاولى ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها والتكاليف الاربعة المذكورة في هذه الآية أمور خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والفكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال وهو التذكر انتهى

(قال الآلوسي) : ويمكن ان يقال اذا أكثر التكليفات الاول أدي بصيغة النهي وهو في معنى المنع والمرء حريص على ما منع فناسب ان يعلل الايصاء بذلك بما فيه ايماء الى معنى المنع والحبس وهذا بخلاف التكليفات الاخر فان أكثرها قد أدي بصيغة الامر وليس المنع فيه ظاهرا كما في النهي فيكون تأكيدات الطلب والمبالغة فيه ليستمر عليه ويتذكر اذا نسي فليتدبر اه

وانا نختم هذه الوصايا العظيمة الشأن بأحاديث وردت فيها نقلا عن الدر المنثور

أخرج الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن ابن مسعود قال من سره أن ينظر الى وصية محمد التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات (قل تعالوا اتل ماحرم ربكم عليكم - الى قوله - لعلهم يتقون) وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ - ثم تلا (قل تعالوا اتل ماحرم ربكم عليكم) الى ثلاث آيات - ثم قال: فمن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئا فادركه الله في الدنيا كانت عقوبته ومن أخره الى الآخرة كان أمره الى الله ان شاء آخذه وان شاء عفا عنه» وأخرج عبد بن حميد وأبو عبيد وابن المنذر عن منذر الثوري قال قال الربيع بن خثيم: أيسرك ان تلقى صحيفة من محمد صلى الله عليه وسلم بخاتم؟ قلت نعم، فقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة الانعام (قل تعالوا اتل ماحرم ربكم عليكم) الى آخر الايات

وأخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن علي بن أبي طالب قال : لما

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج الى منى وأنا معه وأبو بكر وكان أبو بكر رجلا نسابة فوقف على منازلهم ومضاربهم بمنى فسلم عليهم وردوا السلام وكان في القوم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان أقرب القوم الى أبي بكر مفروق وكان مفروق قد غلب عليهم بيانا ولسانا فالتفت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: الام تدعو يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ادعوكم الى شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له واني رسول الله وان تؤووني وتنصروني وتمنعوني حتى أؤدي حق الله الذي أمرني به فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد » قال له: والام تدعو أيضا يا أخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا - الى قوله - تتقون) فقال له مفروق: والام تدعوا أيضا يا أخا قريش فوالله ما هذا من كلام أهل الارض ولو كان من كلامهم لعرفناه فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) الآية فقال له مفروق دعوت والله يا قرشي الى مكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك وقال هانئ بن قبيصة قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ويعجبني ما تكلمت به ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لم تلبثوا الا يسيرا حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم - يعني أرض فارس وأنهار كسرى - ويفرشكم بناتهم ، أتسبحون الله وتقدسونه ؟ فقال له النعمان بن شريك اللهم وان ذلك لك يا أخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) الآية ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم قابضا على يد أبي بكر

الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك لا أحصي ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك وأصلي وأسلم على رسولك وآل رسولك

وبعد فانه وصل الى الحقير الجاني ، محمد بن علي الشوكاني ،غفر الله له ذنوبه ، وستر عن عيون الناس عيوبه ، سؤال من عالم مفضال ، عارف بما قد قيل وما يقال ، في مدارك الحرام والحلال ، عند اختلاف الاقوال ، وتباين آراء الرجال ، وهو العلامة الفهامة الاغر ، محمد بن احمد بن محمد مشحم ، كثر الله فوائده ، ومد على أهل العلم موائده ،وحاصل السؤال هو عن التوسل بالاموات المشهورين بالفضل وكذلك الاحياء ، والاستغاثة بهم ومناجاتهم عند الحاجة ، من نحو : على الله وعليك يافلان وأنا بالله وبك وما يشابه ذلك وتعظيم قبورهم واعتقاد ان لهم قدرة على قضاء حوائج المحتاجين ، وانجاح طلبات السائلين وما حكم من فعل شيئاً من ذلك ؟ وهل يجوز قصد قبور الصالحين لتأدية الزيارة ودعاء الله عندها من غير استغاثة بهم بل بالتوسل بهم فقط ؟ فأقول مستعينا بالله

اعلم ان الكلام على هذه الاطراف يتوقف على ايضاح ألفاظ هي منشأ الاختلاف والالتباس (فمنها) الاستغاثة بالغين المعجمة والمثلثة (ومنها) الاستعانة بالعين المهملة والنون (ومنها) التشفع (ومنها) التوسل

فأما الاستغاثة بالمعجمة والمثلثة فهو طلب الغوث وهو ازالة الشدة كالاستنصار وهو طلب النصر ولا خلاف انه يجوز ان يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على الغوث فيه من الامور ولا يحتاج مثل ذلك الى استدلال فهو في غاية الوضوح ، وما اظنه يوجد فيه خلاف ، ومنه (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) وكما قال (وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر) وكما قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وأما ما لا يقدر عليه الا الله فلا يستغاث فيه الا به كغفران الذنوب والهداية وانزال المطر والرزق ونحو ذلك كما قال تعالى (ومن يغفر الذنوب الا الله ؟) وقال (انك لا تهدي من احببت ولكن

(١) هذا اسم لكتاب للفقه الامام محمد بن علي الشوكاني ننشره في المنار تباعا

الله يهدي من يشاء) وقال (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض؟) وعلى هذا يحمل ما أخرجه الطبراني في معجمه الكبير انه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين فقال أبو بكر رضي الله عنه قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا المنافق فقال صلى الله عليه وآله وسلم « انه لايستغاث بي وانما يستغاث بالله » فراده صلى الله عليه وآله وسلم انه لايستغاث به فيما لايقدر عليه الا الله ، وأما ما يقدر عليه المخلوق فلا مانع من ذلك مثل أن يستغيث المخلوق بالمخلوق ليعينه على حمل حجر أو يحول بينه وبين عدوه الكافر ، او يدفع عنه سبعا صائلا أو لصا او نحو ذلك . وقد ذكر أهل العلم انه يجب على كل مكلف ان يعلم ان لاغياث ولا مغيث على الاطلاق الا الله سبحانه ، وان كل غوث من عنده ، واذا حصل شيء من ذلك على يد غيره فالحقيقة له سبحانه ولغيره مجاز ، ومن اسمائه المغيث والغياث ، قال أبو عبدالله الحليمي الغياث هو المغيث . وا كثر مايقال غياث المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده في الشدائد اذا دعوه ومجيبهم ومخلصهم ، وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين : اللهم اغثنا اللهم اغثنا اغاثة وغياثة وغوثا . وهو في معنى المجيب والمستجيب قال تعالى (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الا ان الاغاثة أحق بالافعال ، والاستجابة بالاقوال ، وقد يقع كل منهما موقع الآخر قال شيخ الاسلام ابن تيمية في بعض فتاواه مالفظه : والاستغاثة بمعنى ان يطلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ماهو اللائق بمنصبه لا ينازع فيه مسلم ومن نازع في هذا المعنى فهو اما كافر واما مخطئ ضال ، وأما بالمعنى الذي نفاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو أيضاً مما يجب نفيها ومن اثبت لغير الله مالا يكون الا لله فهو أيضا كافر اذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها . ومن هذا الباب قول أبي يزيد البسطامي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وقول الشيخ أبي عبد الله القرشي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

وأما الاستعانة بالنون فهي طلب العون ، ولا خلاف انه يجوز ان يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه من أمور الدنيا كان يستعين به على ان يحمل معه متاعه او يعلف دابته أو يبلغ رسالته ، وأما مالا يقدر عليه الا الله جل جلاله فلا يستعان فيه الا به ومنه (اياك نعبد واياك نستعين) .

وأما التشفع بالمخلوق فلا خلاف بين المسلمين انه يجوز طلب الشفاعة في المخلوقين فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا ، وثبت بالسنة المتواترة واتفاق جميع الامة ان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم هو الشافع المشفع وانه يشفع للخلائق يوم القيامة وان الناس يستشفعون به ويطلبون منه ان يشفع لهم الى ربه ، ولم يقع الخلاف الا في كونها لمحو ذنوب المذنبين ، أو لزيادة ثواب المطيعين ، ولم يقل أحد من المسلمين بنفيها قط ، وفي سنن أبي داود ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : انا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله . فقال « شأن الله أعظم من ذلك انه لا يستشفع به على أحد من خلقه » فأقره على قوله نستشفع بك على الله وانكر عليه قوله نستشفع بالله عليك وسيأتي تمام الكلام في الشفاعة

وأما التوسل الى الله سبحانه بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربه فقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : انه لا يجوز التوسل الى الله تعالى الا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ان صح الحديث فيه ولعله يشير الى الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه والترمذي وصححه وابن ماجه وغيرهم ان أعمى أتى الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يارسول الله اني اصبت في بصري فادع الله لي ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم « توضأ وصل ركعتين ثم قل اللهم اني اسألك وأتوجه اليه بنبيك محمد يامحمد اني استشفع بك في رد بصري اللهم شفع النبي في » وقال « فان كان لك حاجة فمثل ذلك » فرد الله بصره .

والناس في معنى هذا قولان (احدهما) ان التوسل هو الذي ذكره عمر ابن الخطاب لما قال : كنا اذا اجدبنا نتوسل بنبينا اليك فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا . وهو في صحيح البخاري وغيره فقد ذكر عمر رضي الله عنه انهم كانوا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته في الاستسقاء ثم توسل بعمه العباس بعد موته وتوسلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه فيكون هو وسيلتهم الى الله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في مثل هذا شافعا وداعيا لهم ، (والقول الثاني) ان التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم يكون في حياته وبعد موته وفي حضرته ومغيبه ولا يخفاك انه قد ثبت التوسل به صلى الله عليه وسلم في حياته وثبت التوسل بغيره بعد موته باجماع الصحابة اجماعا سكوتيا لعدم انكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في التوسل بالعباس رضي الله عنه ، وعندي انه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي

صلى الله عليه وآله وسلم كما زعمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام لامرين (الاول) ماعرفناك به من اجماع الصحابة رضي الله عنهم و(الثاني) ان التوسل الى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة اذ لا يكون الفاضل فاضلا الا بأعماله فاذا قال القائل: اللهم اني أتوسل اليك بالعالم الفلاني فهو باعتبار ما قام به من العلم وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما ان النبي صلى الله عليه وسلم حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة ان كل واحد منهم توسل الى الله بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة فلو كان التوسل بالاعمال الفاضلة غير جائز أو كان شركا كما يزعمه المتشددون في هذا الباب كابن عبد السلام ومن قال بقوله من اتباعه لم تحصل الاجابة من الله لهم ولا سكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن انكار مافعلوه بعد حكايته عنهم ولهذا تعلم أن مايورده المانعون من التوسل الى الله بالانبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) ونحو قوله تعالى (فلا تدعوا مع الله أحدا) ونحو قوله تعالى (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء) ليس بوارد بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه فان قولهم (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) مصرح بأنهم عبدوهم لذلك، والمتوسل بالعالم مثلا لم يعبده بل علم ان له مزية عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك وكذلك قوله تعالى (فلا تدعوا مع الله أحدا) فانه نهى عن ان يدعى مع الله غيره كأن يقول بالله وبا فلان والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع الا الله وانما وقع منه التوسل اليه بعمل صالح عمله بعض عباده كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح اعمالهم (١) وكذلك قوله (والذين يدعون من دونه)

(١) المنار: ان الاستدلال بحديث الذين انطبقت عليهم الصخرة في غير محل النزاع وقد سها عنه عفى الله عنه وذلك ان هؤلاء توسلوا الى الله تعالى بأعمالهم الصالحة التي اخلصوا فيها له تعالى وذلك لايدل على جواز توسل الانسان بعمل غيره من الصالحين فان عمل غيره لاينفعه الا ان يكون من ولده الذي هو من عمله والاصل القطعي في هذا آيات القرآن الصريحة الكثيرة بأن الانسان لا يجزى الا بعمله وآيات النجم في ذلك نص على ان هذا دين جميع رسل الله تعالى: قال عز وجل (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى * ان لاتزر وازرة وزر أخرى * وان ليس للانسان الا ماسعى * وان سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الاوفى)

الآية. فان هؤلاء دعوا من لايستجيب لهم ولم يدعوا ربهم الذي يستجيب لهم ، والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع الا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعا غيره معه

فاذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الادلة الخارجية عن محل النزاع خروجا زائدا على ما ذكرناه كاستدلالهم بقوله تعالى (وما ادراك ما يوم الدين ، ثم ما ادراك مايوم الدين ، يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) فان هذه الآية الشريفة ليس فيها الا انه تعالى المنفرد بالامر في يوم الدين وانه ليس لغيره من الامر شيء والمتوسل بنبي من الانبياء او عالم من العلماء هو لايعتقد ان لمن توسل به مشاركة الله جل جلاله في أمر يوم الدين ، ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبيا أو غير نبي فهو في ضلال مبين، وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله تعالى (ليس لك من الامر شيء— قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرا) فان هاتين الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمر الله شيء ، وانه لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرا فكيف يملك لغيره ، وليس فيهما منع التوسل به او بغيره من الانبياء والاولياء أو العلماء ، وقد جعل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى وارشد الخلق الى ان يسألوه ذلك ويطلبوه منه وقال له « سل تعطه، واشفع تشفع » وقيد ذلك في كتابه العزيز بأن الشفاعة لاتكون الا باذنه ولا تكون الا لمن ارتضى ولعله يأتي تحقيق هذا المقام ان شاء الله تعالى

وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزل قوله تعالى (وانذر عشيرتك الاقربين) « يافلان بن فلان لا أملك لك من الله شيئا يافلانة بنت فلان لا أملك لك من الله شيئا » فان هذا ليس فيه الا التصريح بأنه صلى الله عليه وآله وسلم لايستطيع نفع من اراد الله تعالى ضره ، ولا ضر من اراد الله نفعه ، وانه لايملك لاحد من قرابته فضلا عن غيرهم شيئا من الله ، وهذا معلوم لكل مسلم وليس فيه انه لايتوسل به الى الله فان ذلك هو طلب الامر ممن له الامر والنهي وانما اراد الطالب ان يقدم بين يدي طلبته ما يكون سببا للاجابة (١) ممن هو المنفرد بالعطاء والمنع وهو مالك يوم الدين

(١) ههنا محل الخلاف فان ثبت في الكتاب والسنة ان عمل بعض الناس سبب لاجابة غيرهم الى ما يطلبون من الله عز وجل فتكون حجته صحيحة ولا

واذا عرفت هذا فاعلم ان الرزية كل الرزية والبلية كل البلية أمر غير ما ذكرنا من التوسل المجرد والتشفع بمن له الشفاعة وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور وفي المعروفين بالصلاح من الاحياء من انهم يقدرون على مالا يقدر عليه الا الله جل جلاله ويفعلون مالا يفعله الا الله عز وجل حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم ، فصاروا يدعونهم تارة مع الله وتارة استقلالا ويصرخون باسمائهم ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع ويخضعون لهم خضوعاً زائداً على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء وهذا اذا لم يكن شركا فلا ندري ماهو الشرك واذالم يكن كفرا فليس في الدنيا كفر وهانحن (اولاء) نقص عليك أدلة في كتاب الله سبحانه وفي سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيها المنع مما هو دون هذا بمراحل وفي بعضها التصريح بأنه شرك وهو بالنسبة الى هذا الذي ذكرناه يسير حقير ثم بعد ذلك نعود الى الكلام على مسألة السؤال

فمن ذلك ما أخرجه احمد في مسنده باسناد لا بأس به عن عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى رجلا بيده حلقة من صفر فقال «ماهذه؟ — قال من الواهنة — قال انزعها فانها لا تزيدك الا وهنا ولو مت وهي عليك ما أفلحت » واخرج أيضا عن عقبة بن عامر مرفوعا « من علق تميمة فلا أتم الله له ومن علق ودعة فلا ودع الله له » وفي رواية « من علق تميمة فقد اشرك » ولابن أبي حاتم عن حذيفة انه رأى رجلا في يده خيط الحمى فقطعه وقرأ (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) وفي الصحيح عن أبي بشير الانصاري انه كان مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض اسفاره فأرسل رسولا « ان لايبقين في رقبة بعير قلادة من وتر الا قطعت » واخرج احمد وأبو داود عن ابن مسعود: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « ان الرقى والتمائم والتولة شرك » واخرج أحمد والترمذي عن عبد الله بن حكيم مرفوعا « من تعلق شيئا وكل اليه » واخرج احمد عن رويفع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يارويفع لعل الحياة ستطول بك فاخبر الناس

= نص في الكتاب ولا السنة على هذا بل على خلافه كما سبق في الحاشية التي قبل هذه ، وأثر الاستسقاء بالعباس (رض) لايخالف تلك الآيات فانه عبارة عن طلب الدعاء من الناس في عبادة مشروعة يشاركونه فيها بالصلاة والتأمين على دعائه

ان من عقـد لحيته او تقلد وترا او استنجى برجيع دابة او عظم فان محمدا ري، منه » فانظر كيف جعل الرق والتمائم والتولة شركا ، وما ذلك الالكونها مظنة لان يصحبها اعتقاد أن لغيرالله تأثيراً في الشفاء من الداء ، وفي المحبة والبغضاء ، فكيف بمن نادى غير الله وطلب منه مالا يطلب الا من الله ، واعتقد استقلاله بالتأثير أو اشترا كه مع الله عزوجل ؟

ومن ذلك ما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن واقد الليثي قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حنين ونحن حديثو عهدبكفر وللمشركين سدرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات انواط فقلنا اجعل نا ذات انواط كما لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو اسرائيل (اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون) لتركبن سنن من كان قبلكم » فهؤلاء انما طلبوا ان يجعل لهم شجرة ينوطون بها أسلحتهم كما كانت الجاهلية تفعل ذلك ولم يكن من قصدهم ان يعبدوا تلك الشجرة او يطلبوا منها مايطلبه القبوريون من أهل القبور فأخبرهم صلى الله عليه وآله وسلم ان ذلك بمنزلة الشرك الصريح وانه بمنزلة طلب آلهة غير الله تعالى

ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأربعة كلمات « لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه لعن الله من آوى محدثا لعن الله من غير منار الارض » اخرج احمد عن طارق بن شهاب ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال دخل رجل الجنة في ذباب ودخل النار رجل في ذباب — قالوا كيف ذلك يارسول الله — (صلى الله عليه وآله وسلم) قال « مر رجلان على قوم لهم صنم لايجوزه أحد حتى يقرب اليه شيئا فقالوا لاحدهم قرب ولو ذبابا فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار ، وقالوا للآخر قرب فقال ما كنت أقرب لاحد غير الله عزوجل فضربوا عنقه فدخل الجنة » فانظر لعنه صلى الله عليه وآله وسلم لمن ذبح لغير الله واخباره بدخول من قرب لغير الله النار ، وليس في ذلك الا مجرد كون ذلك مظنة للتعظيم الذي لاينبغي الا لله فما ظنك بما كان شركا بحتا . قال بعض اهل العلم ان اراقة دماء الانعام عبادة لانها اما هدي او أضحية او نسك وكذلك ما يذبح للبيع لانه مكسب حلال فهو عبادة . ويتحصل من ذلك شكل منطقي هو ان اراقة دماء الانعام عبادة وكل عبادة لاتكون الا لله فاراقة

دعاء الانعام لا تكون الا لله ، ودليل الكبرى (١) قوله تعالى (اعبدوا الله مالكم من اله غيره) — (واياي فاعبدون) و (اياك نعبد — وقضى ربك ان لاتعبدوا الا اياه — وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)

ومن ذلك انه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله وقال « من حلف فليحلف بالله أو ليصمت » وقال «من حلف بملة غير الاسلام لم يرجع الى الاسلام سالما » أوكما قال ، وسمع رجلا يحلف باللات والعزى فأمره ان يقول لا اله الا الله ، واخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « من حلف بغير الله فقد اشرك » وهذه الاحاديث في دواوين الاسلام وفيها ان الحلف بغير الله يخرج به الحالف عن الاسلام وذلك لكون الحالف بشيء مظنة لتعظيمه فكيف بما كان شركا محضا يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق في طلب النفع او استدفاع الضر ، وقد يتضمن تعظيم المخلوق زيادة على تعظيم الخالق كما يفعله كثير من المخذولين فانهم يعتقدون ان لاهل القبور من جلب النفع ودفع الضر ماليس لله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

فان انكرت هذا فانظر أحوال كثير من هؤلاء المخذولين فانك تجدهم كما وصف الله سبحانه (واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون)

ومن ذلك ماثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم عند موته انه كان يقول « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » يحذر ماصنعوا (٢) واخرج مسلم عن جندب بن عبدالله انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد ، اني انهاكم عن ذلك » واخرج أحمد بسند جيد وأبوحاتم في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعاً « ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » والاحاديث في هذا الباب كثيرة وفيها التصريح بلعن من اتخذ القبور مساجد مع انه لايعبد الا الله وذلك لقطع ذريعة الشرك، ودفع وسيلة التعظيم ، وورد مايدل على ان عبادة الله عند القبور بمنزلة اتخاذها

---

(١) اي الكبرى من شكل القياس المنطقي الذي استدل به وهي قوله : وكل عبادة لاتكون الا لله. (٢) «يحذر ماصنعوا » من كلام عائشة راوية الحديث اي لعنهم تحذيرا للمسلمين ان يصنعوا مثلهم

ثالثاً تعبد ، اخرج مالك في الموطأ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اللهم تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» بالغ في ذلك حتى لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، لعل وجه تخصيص النساء بذلك لما في طبائعهن من النقص المفضي الى الاعتقاد التعظيم بأدنى شبهة، ولاشك ان علة النهي عن جعل القبور مساجد وعن سريجها وتجصيصها (١) ورفعها وزخرفتها هي ماينشأ عن ذلك من الاعتقادات ماسدة كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان أم سلمة ذكرت سول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور نال« أولئك اذا مات فيهم الرجل — أو العبد — الصالح بنوا على قبره مسجداً صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله » ولابن خزيمة عن ماهد (أفرأيتم اللات والعزى) قال كان يلت له السويق فمات فعكفوا على ره ، وكل عاقل يعلم ان لزيادة الزخرفة للقبور واسبال الستور الرائعة عليها تسريجها والتأنق في تحسينها تأثيرا في طبائع غالب العوام ينشأ عنه التعظيم الاعتقادات الباطلة وهكذا اذا استعظمت نفوسهم شيئا مما يتعلق بالاحياء بهذا السبب اعتقد كثير من الطوائف الالهية في اشخاص كثير

ورأيت في بعض كتب التاريخ انه قدم رسول لبعض الملوك على بعض خلفاء بني عباس فبالغ الخليفة في التهويل على ذلك الرسول وما زال اعوانه ينقلونه من رتبة لى رتبة حتى وصل الى المجلس الذي يقعد الخليفة في برج من ابراجه وقد جمل لك المنزل بأبهى الآيات وقعد فيه أبناء الخلفاء وأعيان الكبراء، وأشرف لخليفة من ذلك البرج وقد انخلع قلب ذلك الرسول مما رأى فلما وقعت عيناه لى الخليفة قال لمن هو قابض على يده من الامراء :أهذا الله ؟فقال ذلك الامير ل هو خليفة الله .فانظر ماصنع ذلك التحسين بقلب هذا المسكين ، وروي لنا ن بعض أهل جهات القبلة وصل الى القبة الموضوعة على قبر الامام أحمد بن لحسين صاحب ذي بين رحمه الله فرآها وهي مسرجة بالشمع والبخور ينفح في

(١) جعل القبور مساجد كثير في مصر حتى يقل ان يوجد مسجد ليس بنيا على غير قبر ، وتسريجها وضع السرج أو المصابيح عليها اوعندها ومثلها لشمع ،وتجصيصها بناؤها بالجص وانما نهي النبي (ص) عن ذلك ولعن فاعليه لأنه من أعمال الشرك او ذرائعه على الاقل

جوانبها وعلى القبر الستور الفائقة فقال عند وصوله الى الباب امسيت بالخير يا أرحم الراحمين

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (ولا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا * ولا يغوث ويعوق ونسرا) قال هذه اسماء رجال من قوم نوح لما هلكوا اوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون عليها انصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم يعبدوا حتى اذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت ، وقال غير واحد من السلف لما ماتوا عكفوا على قبورهم

ومن ذلك ما أخرجه احمد باسناد جيد عن قبيصة عن أبيه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان العيافة والطرق والطيرة من الجبت » (١) واخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان أيضاً ، واخرج أبو داود بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر » واخرج النسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكل اليه » وهذه الامور كلها كانت من الجبت والشرك لانها مظنة التعظيم الجالب للاعتقاد الفاسد

ومن ذلك ما أخرجه أهل السنن والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أتى كاهنا او عرافا فقد كفر بما أنزل على محمد » واخرج أبو يعلى بسند جيد مرفوعا « من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » واخرج نحوه الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن، والعلة الموجبة للحكم بالكفر ليست الاعتقاد انه مشارك لله تعالى في علم الغيب مع انه في الغالب يقع غير مصحوب بهذا الاعتقاد ولكن من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه . ومن ذلك ما في الصحيحين وغيرهما عن زيد بن خالد قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) الجبت اسم جامع للخرافات كلها ومنها العيافة وهي التشاؤم أو التفاؤل من الالفاظ والطرق بالحصى أو الودع أو حب الفول لمعرفة البخت ومثله الرمل والطيرة التشاؤم او التفاؤل بالطير وحركاته واسمه

وسلم صلاة الصبح على أثر سماء (١) من الليل - فلما انصرف اقبل على الناس بوجهه الشريف فقال « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم » - قال اصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب » ولا يخفى على عارف أن العلة في الحكم بالكفر هي مافي ذلك من ايهام المشاركة وأين هذا ممن يصرح في دعائه عند (٢) ان يمسه الضر بقوله : ياالله ويافلان وعلى الله وعلى فلان ؟ فان هذا يعبد ربين ويدعو اثنين وأما من قال مطرنا بنوء كذا فهو لم يقل امطره ذلك النوء بل قال امطر به وبين الامرين فرق ظاهر

ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يقول الله عزوجل : أنا اغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا اشرك معي فيه غيري تركته وشركه » واخرج أحمد (٣) عن أبي سعيد مرفوعا « الا أخبركم بما هو اخوف عليكم من المسيح الدجال ؟ - قالوا بلى قال - الشرك الخفي يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل » ومن ذلك قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) فاذا كان مجرد الرياء الذي هو فعل الطاعة لله عز وجل مع محبته ان يطلع عليها غيره او يثني عليه بها او يستحسنها شركا فكيف بما هو محض الشرك

ومن ذلك ما أخرجه النسائي أن يهوديا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة فأمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان يقولوا : ورب الكعبة وان يقولوا ما شاء الله ثم ما شئت ، وأخرج النسائي أيضا عن ابن عباس مرفوعا ان رجلا قال : ما شاء الله وشئت . قال « أجعلتني لله نداء ؟ قل ما شاء الله وحده » وأخرج ابن ماجه عن الطفيل قال رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود فقلت انكم لانتم القوم لولا انكم تقولون عزير ابن الله قالوا وأنتم القوم لولا انكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد . ثم مررت بنفر من النصارى فقلت انكم لانتم القوم

(١) اي بعد وقوع مطر (٢) ترك هنا في الاصل بياض قليل والظاهر ان الاصل « عند قبور الصالحين بعد أو خيفة » (٣) رواه ابن ماجه والبيهقي أيضاً

لولا انكم تقولون المسيح ابن الله ، وقالوا وأنتم لأنتم القوم لولا انكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد — فلما أصبحت وأخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته قال « فهل أخبرت بها أحداً ؟ — قال نعم قال فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « اما بعد ان طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وانكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا ان أنهاكم فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله وحده » (١) والوارد في هذا الباب كثير وفيه ان التشريك في المشيئة بين الله ورسوله أوغيره من عبيده فيه نوع من الشرك ولهذا جعل ذلك في هذا المقام الصالح كشرك اليهود والنصارى بأثبات ابن لله عز وجل وفي تلك الرواية السابقة انه اثبات ند لله عز وجل

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم لمن قال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى « بئس خطيب القوم انت » وهو في الصحيح وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) انه قال الانداد أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو ان يقول والله وحياتك يافلان وحياتي ويقول لولا كلبه هذا لاتانا ولولا بط في الدار لاتى اللصوص وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت وقول الرجل لولا الله وفلان هذا كله شرك . ومن ذلك ماثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لايقل أحدكم أطعم ربك وأرض ربك ولايقل أحدكم عبدي وامتي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي (٢) » ووجه هذا النهي مايفهم من مخاطبة السيد بمخاطبة العبد لربه ، والرب لعبده وان لم يكن ذلك مقصوداً ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله

---

(١) طفيل هو ابن سخبرة أخو عائشة لامها وقد عزاه في الدر المنثور الى أحمد وابن ماجه والبيهقي وفيه « كان يمنعني الحياء منكم » محل كذا وكذا وفي آخره زيادة « وحده لاشريك له » والحديث ضعيف

(٢) الحديث وارد في تكريم الرقيق ولفظ البخاري الذي اختاره المصنف وحرفه الناسخ « لايقل أحدكم أطعم ربك وضئ ربك اسق ربك ، وليقل سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم عبدي أمتي ، ولكن فتاي وفتاتي وغلامي »

صلى الله عليه وآله وسلم« قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة ، وليخلقوا حبة وشعيرة » ولهما عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون خلق الله » ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسا يعذب بها في جهنم » ولهما عنه مرفوعاً « من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيه الروح وليس بنافخ » واخرج مسلم عن أبي الهياج الاسيدي قال: قال لي علي الا ابعثك على مابعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ الا تدع صورة الا طمستها ولا قبرا مشرفا الا سويته (١)

فانظر الى مافي هذه الاحاديث من الوعيد الشديد للمصورين لكونهم فعلوا فعلا يشبه فعل الخالق وان لم يكن ذلك مقصودا لهم، وهؤلاء القبوريون قد جعلوا بعض خلق الله شريكا له ومثلا وندا فاستغاثوا به فيما لايستغاث فيه الا بالله وطلبوا منه مالا يطلب الا من الله مع القصد والارادة

ومن ذلك ما أخرجه النسائي بسند جيد عن عبد الله بن الشخير قال : انطلقت في وفد بني عامر الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلنا : انت سيدنا ، قال « السيد الله تبارك وتعالى — قلنا وافضلنا واعظمنا طولا قال — قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرنكم الشيطان ـ وفي رواية ـ لايستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبدالله ورسوله ما أحب ان ترفعوني فوق منزلتي التي انزلني الله عزوجل »

وبالجملة فالوارد عن الشرع من الادلة الدالة على قطع ذرائع الشرك وهدم كل شيء يوصل اليه في غاية الكثرة ولو رمت حصر ذلك على التمام لجاء في مؤلف بسيط فلنقتصر على هذا المقدار ونتكلم على حكم مايفعله القبوريون من الاستغاثة بالاموات، ومناداتهم لقضاء الحاجات، وتشريكهم مع الله في بعض الحالات ، وافرادهم بذلك في بعضها فنقول :

أعلم ان الله لم يبعث رسوله ولم ينزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق لهم

(١) ذكر الامام الشافعي رحمه الله تعالى في الام ونقله عنه النووي في شرح مسلم انه رأى الائمة بمكة يهدمون ماشيد من القبور ويسوونها بالارض عملا بهذا الحديث فليعتبر الذين يدعون اتباع مذهبه

والرزاق لهم ونحو ذلك فان هذا يقر به كل مشرك قبل بعثة الرسول (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله * ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم * قل من يرزقكم من السماء والارض ، أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر ؟ فسيقولون الله فقل أفلا تتقون * قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون * سيقولون الله (١) قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون الله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون * سيقولون الله قل فأنى تسحرون) ولهذا تجد كل ما ورد في الكتاب العزيز في شأن خالق الخلق ونحوه في مخاطبة الكفار معنونا باستفهام التقرير (هل من خالق غير الله ؟ أفي الله شك فاطر السموات والارض ؟ اغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض ؟ أروني ماذا خلق الذين من دونه ؟) بل بعث الله رسله وأنزل كتبه لاخلاص توحيده وافراده بالعبادة (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره * الا تعبدوا الا الله * ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره * واياي فاعبدون) واخلاص التوحيد لا يتم الا بأن يكون الدعاء كله لله والنداء والاستغاثة والرجاء واستجلاب الخير واستدفاع الشر له ومنه لا لغيره ولا من غيره (فلا تدعوا مع الله أحدا * له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ـ وعلى الله فليتوكل المؤمنون * وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) وقد تقرر ان شرك المشركين الذين بعث الله اليهم خاتم رسله صلى الله عليه وسلم لم يكن الا باعتقادهم ان الانداد التي اتخذوها تنفعهم وتضرهم وتقربهم الى الله وتشفع لهم عنده مع اعترافهم بأن الله سبحانه هو خالقها وخالقهم ورازقها ورازقهم ومحييها ومحييهم ومميتها ومميتهم (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى * فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون * ان كنا لفي ضلال مبين * اذ نسويكم برب العالمين * وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون * هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لاشريك لك ، الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

(١) (سيقولون الله) قراءة سبعية وقراءة حفص التي عليها مصاحفنا (سيقولون لله) والقراءتان سواء هذه في الآيات كلها .

واذا تقرر هذا فلا شك ان من اعتقد في ميت من الاموات اوحي من الاحياء انه يضره او ينفعه اما استقلالا او مع الله تعالى او ناداه أو توجه اليه او استغاث به في أمر من الامور التي لا يقـدر عليها المخلوق فلم يخلص التوحيد لله ولا افرده بالعبادة ـ اذ الدعاء بطلب وصول الخير اليه ودفع الضر عنه هو نوع من أنواع العبادة ـ ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله او معه حجرا أوشجرا او ملكا او شيطانا كما كان يفعل ذلك الجاهلية ، وبين ان يكون انسانا من الاحياء أو الاموات كما يفعله الآن كثير من المسلمين ، وكل عالم يعلم هذا أويقر به فان العلة واحدة وعبادة غير الله تعالى وتشريك غيره معه يكون للحيوان كما يكون للجماد ، وللحي كما يكون للميت ، فمن زعم ان ثم فرقاً بين من اعتقد في وثن من الاوثان انه يضر او ينفع وبين من اعتقد في ميت من بني آدم انه يضر او ينفع أو يقدرعلى أمر لا يقدر عليه الا الله تعالى فقد غلط غلطا بينا واقرعلى نفسه بجهل كثير ، فان الشرك هو دعاء غير الله في الاشياء التي تختص به أواعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أوالتقرب الى غيره بشيء مما لا يتقرب به الا اليه ، ومجرد تسمية المشركين لما جعلوه شريكا بالصنم والوثن والاله لغير الله زيادة على التسمية بالولي والقبر والمشهد كما يفعله كثير من المسلمين بل الحكم واحد اذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن اذ ليس الشرك هو مجرد اطلاق بعض الاسماء على بعض المسميات بل الشرك هو ان يفعل لغيرالله شيئا يختص به سبحانه سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية أو اطلق عليه اسما آخر فلا اعتبار بالاسم قط. ومن لم يعرف هذا فهو جاهل لا يستحق ان يخاطب بما يخاطب به أهل العلم ، وقد علم كل عالم ان عبادة الكفار للاصنام لم تكن الا بتعظيمها واعتقاد أنها تضر وتنفع والاستغاثة بها عند الحاجة والتقرب لها في بعض الحالات بجزء من أموالهم وهذا كله قد وقع من المعتقدين في القبور فانهم قد عظموها الى حد لا يكون الا لله سبحانه بل ربما يترك العاصي منهم فعل المعصية اذا كان في مشهد من يعتقده أو قريبا منه مخافة تعجيل العقوبة من ذلك الميت، وربما لا يتركها اذا كان في حرم الله أوفي مسجد من المساجد أو قريبا من ذلك، وربما حلف بعض غلاتهم بالله كاذبا ولم يحلف بالميت الذي يعتقده

وأما اعتقادهم انها تضر وتنفع فلولا اشتمال ضمائرهم على هذا الاعتقاد لم يدع أحد منهم ميتا أو حيا عند استجلابه لنفع واستدفاعه لضر قائلا يافلان افعل لي كذا وكذا وعلى الله وعليك وأنا بالله وبك

وأما التقرب للاموات فانظر ماذا يجعلونه من النذور لهم وعلى قبورهم في كثير من المحلات، ولو طلب الواحد منهم ليسمح بجزء من ذلك لله تعالى لم يفعل، وهذا معلوم يعرفه من عرف أحوال هؤلاء

(فان قلت) ان هؤلاء القبوريين يعتقدون ان الله تعالى هو الضار النافع والخير والشر بيده، وان استغاثوا بالاموات قصدوا انجاز مايطلبونه من الله سبحانه (قلت) وهكذا كانت الجاهلية فانهم كانوا يعلمون ان الله هو الضار النافع وان الخير والشر بيده وانما عبدوا أصنامهم لتقربهم الى الله زلفى كما حكاه الله عنهم في كتابه العزيز، نعم اذا لم يحصل من المسلم الا مجرد التوسل الذي قدمنا تحقيقه فهو كما ذكرناه سابقاً ولكن من زعم انه لم يقع منه الا مجرد التوسل وهو يعتقد من تعظيم ذلك الميت مالا يجوز اعتقاده في أحد من المخلوقين وزاد على مجرد الاعتقاد فتقرب الى الاموات بالذبائح والنذور وناداهم مستغيثا بهم عند الحاجة فهذا كاذب في دعواه انه متوسل فقط فلو كان الامر كما زعمه لم يقع منه شيء من ذلك والمتوسل به لايحتاج الى رشوة بنذر او ذبح ولا تعظيم ولا اعتقاد لان المدعو هو الله سبحانه وهو أيضاً المجيب ولا تأثير لمن وقع به التوسل قط بل هو بمنزلة التوسل بالعمل الصالح فأي جدوى في رشوة من قد صار تحت اطباق الثرى بشيء من ذلك ؟ وهل هذا الا فعل من يعتقد التأثير اشتراكا واستقلالا ؟ ولا اعدل من شهادة افعال جوارح الانسان على بطلان ماينطق به لسانه من الدعاوي الباطلة العاطلة، بل من زعم انه لم يحصل منه الا مجرد التوسل وهو يقول بلسانه يافلان مناديا لمن يعتقده من الاموات فهو كاذب على نفسه ومن انكر حصول النداء للاموات والاستغاثة بهم استقلالا فليخبرنا ما معنى مانسمعه في الاقطار اليمنية من قولهم ياابن العجيل يازيلعي! يا ابن علوان! يافلان يافلان(١) وهل ينكر هذا منكر ويشك فيه شاك؟ وما عدا ديار اليمن فالامر فيها أطم وأعم، ففي كل قرية ميت يعتقده أهلها

(١) ومثل هذا مايسمعه كل أحد عند القبور المشيدة في الديار المصرية: ياسيد، يابدوي، يادسوقي، يابيومي، يامتبولي الخ

ينادونه في كل مدينة جماعة منهم حتى انهم في حرم الله ينادون يابن عباس!
عجوب ! فما ظنك بغير ذلك فلقد تلطف ابليس وجنوده أخزاهم الله تعالى
نال أهل الملة الاسلامية بلطفة تزلزل الاقدام عن الاسلام فانا لله وانا اليه راجعون
أين من يعقل معنى (ان الذين تدعون من دونه الله عباد أمثالكم — فلا
يدعوا مع الله أحدا — له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم
بشيء) وقد اخبرنا الله سبحانه ان الدعاء عبادة في محكم كتابه بقوله تعالى
ادعوني استجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)
اخرج أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح من حديث النعمان بن بشير قال
ال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ان الدعاء هو العبادة » وفي رواية
« مخ العبادة » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الاية المذكورة ،
اخرج أيضاً النسائي وابن ماجه والحاكم واحمد وابن أبي شيبة باللفظ المذكور
وكذلك النحر للاموات عبادة لهم والنذر لهم بجزء من المال عبادة لهم
والتعظيم عبادة لهم كما أن النحر للنسك واخراج صدقة المال والخضوع
والاستكانة عبادة لله عز وجل بلا خلاف، ومن زعم ان ثم فرقا بين الامرين
فليهده الينا ، ومن قال انه لم يقصد بدعاء الاموات والنحر لهم والنذر عليهم
بادئهم فقل له : فلاي مقتض صنعت هذا الصنع؟ فان دعاءك للميت عند نزول
مر بك لا يكون الا لشيء في قلبك عبر عنه لسانك، فان كنت تهذي بذكر
الاموات عند عروض الحاجات من دون اعتقاد منك لهم فانت مصاب بعقلك
وهكذا ان كنت تنحر لله وتنذر لله فلأي معنى جعلت ذلك للميت وحملته الى
بره فان الفقراء على ظهر البسيطة في كل بقعة من بقاع الارض وفعلك وانت
عاقل لا يكون الا لمقصد قد قصدته أو امر قد أردته والا فانت مجنون قد رفع
عنك القلم ولا نوافقك على دعوى الجنون الا بعد صدور أفعالك وأقوالك في
غير هذا على نمط افعال المجانين ، فان كنت تصدرها مصدر افعال العقلاء فانت
تكذب على نفسك في دعواك الجنون في هذا الفعل بخصوصه فرارا عن ان
يلزمك ما لزم عباد الاوثان الذين حكى الله عنهم في كتابه العزيز ما حكاه بقوله
(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا
لشركائنا) وبقوله (ويجعلون لما لايعلمون نصيبا مما رزقناهم ، تالله لتسألن عما
كنتم تفترون)

(فان قلت) ان المشركين كانوا لا يقرون بكلمة التوحيد وهؤلاء المعتقدون في الاموات يقرون بها (قلت) هؤلاء انما قالوها بألسنتهم وخالفوها بافعالهم فان من استغاث بالاموات أو طلب منهم مالا يقدر عليه الا الله سبحانه ، أو عظمهم ، أونذر عليهم بجزء من ماله او نحر لهم فقد نزلهم منزلة الآلهة التي كان المشركون يفعلون لها هذه الافعال فهولم يعتقد معنى لا اله الا الله ولاعمل به بل خالفها اعتقادا وعملا فهو في قوله لا اله الا الله كاذب على نفسه،فانه قد جعل الهاً غير الله يعتقد انه يضر وينفع وعبده بدعائه عندالشدائد والاستغاثة به عند الحاجة وبخضوعه له وتعظيمه اياه ونحر له النحائر وقرب اليه نفائس الاموال ،وليس بمجرد قول لااله الا الله من دون عمل بمعناها ،مثبتا للاسلام فانه لو قالها أحد من أهل الجاهلية وعكف على صنمه يعبده لم يكن ذلك اسلاماً

(فان قلت) قد اخرج احمد بن حنبل والشافعي في مسنديهما من حديث عبد الله بن عدي بن الخيار ان رجلا من الانصار حدثه انه أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مجلسه فساره ليستأذنه في قتل رجل من المنافقين فجهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال « أليس يشهد ان لا اله الا الله؟ » قال الانصاري بلى يارسول الله ولا شهادة له قال « أليس يشهد ان محمدا رسول الله؟ » قال بلى ولكن لاشهادة له قال « أليس يصلي؟ » قال بلى ولا صلاة له قال « أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم » وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد في قصة الرجل الذي قال يارسول الله صلى الله عليه وسلم اتق الله وفيه فقال خالد ابن الوليد رضي الله عنه يارسول الله ألا اضرب عنقه ؟ فقال « لا! لعله ان يكون يصلي » فقال خالد : كم من مصل يقول بلسانه ماليس في قلبه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اني لم أومر ان انقب عن قلوب الناس ولا اشق قلوبهم » ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم لاسامة بن زيد رضي الله عنه لما قتل رجلا من الكفار بعد ان قال لا اله الا الله فقال له صلى الله عليه وآله وسلم « فما تصنع بلا اله الا الله » فقال يارسول الله انما قالها تقية فقال « هل شققت عن قلبه » هذا معنى الحديث وهو في الصحيح

(قلت) لاشك ان من قال لا اله الا الله ولم يتبين من أفعاله ما يخالف معنى التوحيد فهو مسلم محقون الدم والمال اذا جاء بأركان الاسلام المذكورة في حديث « أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ويقيموا الصلاة

ويؤتوا الزكاة ويحجوا البيت ويصوموا رمضان » وهكذا من قال لا اله الا الله متشهداً بها شهادة الاسلام ولم يكن قد مضى عليه من الوقت مايجب فيه شيء من أركان الاسلام ، فالواجب حمله على الاسلام عملا بما أقر به لسانه واخبر به من أراد قتاله ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم لاسامة بن زيد ما قال. وأما من تكلم بكلمة التوحيد وفعل افعالا تخالف التوحيد كاعتقاد هؤلاء المعتقدين في الاموات فلا ريب انه قد تبين من حالهم خلاف ما حكته ألسنتهم من اقرارهم بالتوحيد، ولو كان مجرد التكلم بكلمة التوحيد موجبا الدخول في الاسلام والخروج من الكفر سواء فعل المتكلم بها مايطابق التوحيد أو يخالفه لكانت نافعة لليهود مع انهم يقولون عزير ابن الله وللنصارى مع انهم يقولون المسيح ابن الله وللمنافقين مع انهم يكذبون بالدين ويقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم، وجميع هذه الطوائف الثلاث يتكلمون بكلمة التوحيد بل لم تنفع الخوارج فانهم من أكمل الناس توحيدا وأكثرهم عبادة وهم كلاب النار وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتلهم مع انهم لم يشركوا بالله ولا خالفوا معنى لا اله الا الله بل وحدوا الله توحيده، وكذلك المانعون للزكاة هم موحدون لم يشركوا ولكنهم تركوا ركنا من أركان الاسلام ولهذا أجمعت الصحابة رضي الله عنهم على قتالهم بل دل الدليل الصحيح المتواتر على ذلك وهو الاحاديث الواردة بألفاظ منها « أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويحجوا البيت ويصوموا رمضان فاذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها » فمن ترك هذه الخمس ، لم يكن معصوم الدم ولا المال ، وأعظم من ذلك تارك معنى التوحيد والمخالف له بما يأتي به من الافعال

(فان قلت) هؤلاء المعتقدون في الاموات لا يعلمون بأن مايفعلونه شرك بل لو عرض أحدهم على السيف لم يقر بأنه مشرك بالله ولا فاعل لما هو شرك بل ولو علم أدنى علم ان ذلك شرك لم يفعله (قلت) الامر كما قلت ولكن لا يخفى عليك ما تقرر في أسباب الردة انه لا يعتبر في ثبوتها العلم بمعنى ما قاله من جاء بلفظ كفري أو فعل فعلا كفريا . وعلى كل حال فالواجب على كل من اطلع على شيء من هذه الاقوال والافعال التي اتصف بها المعتقدون في الاموات ان يبلغهم الحجة الشرعية ويبين لهم ما أمره الله ببيانه وأخذ عليه الميثاق ان لا يكتمه

كما حكي ذلك لنا في كتابه العزيز فيقول لمن صار يدعو الاموات عند الحاجات ، ويستغيث بهم عند حلول المصيبات ، وينذر لهم النذور، وينحر لهم النحور، ويعظمهم تعظيم الرب سبحانه: ان هذا الذي يفعلونه هو الشرك الذي كانت عليه الجاهلية وهو الذي بعث الله رسوله بهدمه ، وانزل كتبه في ذمه ، وأخذ على النبيين ان يبلغوا عباده انهم لا يؤمنون حتى يخلصوا له التوحيد ويعبدوه وحده. فاذا علموا بهذا علما لا يبقى معه شك ولا شبهة ثم اصروا على ماهم فيه من الطغيان ، والكفر بالرحمن ، وجب عليه ان يخبرهم بأنهم اذا لم يقلعوا عن هذه الغواية ، ويعودوا الى ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الهداية . فقد حلت دماؤهم وأموالهم ، فان رجعوا والا فالسيف هو الحكم العدل كما نطق به الكتاب المبين وسنة سيد المرسلين في اخوانهم من المشركين

(فان قلت) فقد ورد الحديث الصحيح بأن الخلائق يوم القيامة يأتون آدم فيدعونه ويستغيثونه ثم نوحا ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وسائر اخوانه من الانبياء (قلت) أهل المحشر انما يأتون هؤلاء الانبياء يطلبون منهم ان يشفعوا لهم الى الله سبحانه ويدعوا لهم بفصل الحساب والاراحة من ذلك الموقف وهذا جائز فانه من طلب الشفاعة والدعاء المأذون فيهما، وقد كان الصحابة يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته ان يدعو لهم كما في حديث يارسول الله ادع الله ان يجعلني منهم لما اخبرهم بأنه يدخل الجنة سبعون ألفا وحديث « سبقك بها عكاشة » وقول أم سليم يارسول الله خادمك انس ادع الله له ، وقول المرأة التي كانت تصرع يارسول الله ادع الله لي ، وآخر الامر سألته الدعاء بأن لا تتكشف عند الصرع فدعا لها ، ومنه ارشاده صلى الله عليه وآله وسلم لجماعة من الصحابة بأن يطلبوا الدعاء من أويس القرني اذا أدركوه ، ومنه ماورد في دعاء المؤمن لاخيه بظهر الغيب ، وغير ذلك مما لا يحصر حتى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر لما خرج معتمراً « لا تنسني يا أخي من دعائك » فمن جاء الى رجل صالح واستمد منه ان يدعو له فهذا ليس من ذلك الذي يفعله المعتقدون في الاموات بل هو سنة حسنة وشريعة ثابتة ، وهكذا طلب الشفاعة ممن جاءت الشريعة المطهرة بأنه من أهلها كالانبياء ولهذا يقول الله لرسوله يوم القيامة «سل تعطه واشفع تشفع » وذلك هو المقام المحمود الذي وعده الله به كما في كتابه العزيز

والحاصل ان طلب الحوائج من الاحياء جائز اذا كانوا يقدرون عليها ومن ذلك الدعاء فانه يجوز استمداده من كل مسلم بل يحسن ذلك ، وكذلك الشفاعة من أهلها الذين ورد الشرع بأنهم يشفعون ، ولكن ينبغي ان يعلم ان دعاء من يدعو له لاينفع الا باذن الله وارادته ومشيئته ، وكذلك شفاعة من يشفع لا يكون الا باذن الله كما ورد بذلك القرآن العظيم ، فهذا تقييد للمطلق لاينبغي العدول عنه بحال

واعلم ان من الشبة الباطلة التي يوردها المعتقدون في الاموات انهم ليسوا كالمشركين من أهل الجاهلية لانهم انما يعتقدون في الاولياء والصالحين وأولئك اعتقدوا في الاوثان والشياطين ، وهذه الشبة داحضة تنادي على صاحبها بالجهل ، فان الله سبحانه لم يعذر من اعتقد في عيسى عليه السلام وهو نبي من الانبياء (بل) خاطب النصارى بتلك الخطابات القرآنية ومنها (يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله) وقال لمن كان يعبد الملائكة (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة : أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ؟ *قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) ولاشك ان عيسى والملائكة أفضل من هؤلاء الاولياء والصالحين الذين صار هؤلاء القبوريون يعتقدونهم ويغلون في شأنهم مع ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أكرم الخلق على الله وسيد ولد آدم وقد نهى أمته ان تغلو فيه كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام ولم يمتثلوا أمره ولم يمتثلوا ما ذكره الله في كتابه العزيز من قوله (ليس لك من الامر شيء) ومن قوله (وما ادراك مايوم الدين ؟ *ثم ما ادراك ما يوم الدين ؟ *يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) وما حكاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من انه لايملك لنفسه نفعا ولا ضراً وما قاله صلى الله عليه وآله وسلم لقرابته الذين أمره الله بانذارهم بقوله (وأنذر عشيرتك الاقربين) فقام داعيا لهم ومخاطبا لكل واحد منهم قائلا يافلان ابن فلان لا أغني عنك من الله شيئا يافلانة بنت فلان لا أغني عنك من الله شيئا يابني فلان لا أغني عنكم من الله شيئا . فانظر رحمك الله تعالى ما وقع من كثير من هذه الامة من الغلو المنهي عنه المخالف لما في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما يقول صاحب البردة رحمه الله تعالى

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به * سواك عند حلول الحادث العمم

فانظر كيف نفى كل ملاذ ما عدا عبدالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وغفل عن ذكر ربه ورب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . انا لله وانا اليه راجعون

وهذا باب واسع . قد تلاعب الشيطان بجماعة من أهل الاسلام حتى ترقوا الى خطاب غير الانبياء بمثل هذا الخطاب، ودخلوا من الشرك في أبواب، بكثير من الاسباب ومن ذلك قول من يقول مخاطبا لابن العجيل :

هات لي منك يا ابن موسى اغاثه * عاجلا في سيرها حثاثه

فهذا محض الاستغاثة التي لا تصلح لغير الله (١) لميت من الاموات قد صار تحت اطباق الثرى منذ مئين السنين ، ويغلب على الظن ان مثل هذا البيت والبيت الذي قبله انما وقعا من قائليهما لغفلة وعدم تيقظ ولا مقصد لهما الا تعظيم جانب النبوة والولاية ولونبها لتنبها واقرا بالخطأ ، وكثير ما يعرض ذلك لاهل العلم والادب والفطنة وقد سمعنا وارينا ، فمن وقف على شيء من هذا الجنس لحي من الاحياء فعليه ايقاظه بالحجج الشرعية فان رجع والا كان الامر فيه كما أسلفناه ، وأما اذا كان القائل قد صار تحت اطباق الثرى فينبغي ارشاد الاحياء الى مافي ذلك الكلام من الخلل ، وقد وقع في البردة والهمزية شيء كثير من هذا الجنس ووقع أيضاً لمن تصدى لمدح نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولمدح الصالحين والائمة الهادين ما لا يأتي عليه الحصر ولا يتعلق بالاستكثار منه فائدة فليس المراد الا التنبيه والتحذير لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين — ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب)

واعلم انما حررناه وقررناه من ان كثيرا مما يفعله المعتقدون في الاموات يكون شركا قد يخفى على كثير من أهل العلم وذلك لا لكونه خفيا في نفسه بل لاطباق الجمهور على هذا الامر وكونه قد شاب عليه الكبير وشب عليه الصغير ، وهو يرى ذلك ويسمعه ولا يرى ولا يسمع من ينكره، بل ربما يسمع من يرغب فيه ويندب الناس اليه ، وينضم الى ذلك ما يظهره الشيطان للناس من قضاء حوائج من قصد بعض الاموات الذين لهم شهرة وللعامة فيهم اعتقاد، وربما يقف جماعة من المحتالين على قبر ويجلبون الناس بأكاذيب يحكونها عن ذلك الميت ليستجلبوا منهم النذور ويستدروا منهم الارزاق ويقتنصوا

(١) لعل الاصل « لغير الله من الاحياء فكيف تصلح لميت الخ » وكتبه صالح

النحائر ويستخرجوا من عوام الناس مايعود عليهم وعلى من يعولونه ويجعلون ذلك مكسبا ومعاشا وربما يهولون على الزائر لذلك الميت بتهويلات ويجعلون قبره بما يعظم في عين الواصلين اليه ويوقدون في المشهد الشموع ويوقدون فيه الاطياب، ويجعلون لزيارته مواسم مخصوصة يتجمع فيها الجمع الجم فيبهر الزائر ويرى مايملأ عينه وسمعه من ضجيج الخلق وازدحامهم وتكالبهم على القرب من الميت والتمسح بأحجار قبره واعواده والاستغاثة به والالتجاء اليه وسؤاله قضاء الحاجات ونجاح الطلبات مع خضوعهم واستكانتهم وتقريبهم اليه نفائس الاموال ونحرهم اصناف النحائر. فبمجموع هذه الامور مع تطاول الازمنة وانقراض القرن بعد القرن يظن الانسان في مبادئ عمره وأوائل أيامه ان ذلك من أعظم القربات وأفضل الطاعات ثم لا ينفعه ماتعلمه من العلم بعد ذلك بل يذهل عن كل حجة شرعية تدل على ان هذا هو الشرك بعينه واذا سمع من يقول ذلك تنكره ونبا عنه سمعه وضاق به ذرعه، لانه يبعد كل البعد أن ينقل ذهنه دفعة واحدة في وقت واحد عن شيء يعتقده من أعظم الطاعات الى كونه من اقبح القبحات وأكبر المحرمات، مع كونه قد درج عليه الاسلاف ودب فيه الاخلاف، وتعاودته العصور، وتناوبته الدهور، وهكذا كل شيء يقلد الناس فيه اسلافهم ويحكمون العادات المستمرة. وبهذه الذريعة الشيطانية، والوسيلة الطاغوتية، بقي المشرك من الجاهلية على شركه؛ واليهودي على يهوديته؛ والنصراني على نصرانيته؛ والمبتدع على بدعته؛ وصار المعروف منكرا والمنكر معروفا؛ وتبدلت الامه بكثير (١) المسائل الشرعية غيرها؛ والفوا ذلك ومرنت عليه نفوسهم؛ وقبلته قلوبهم، وأنسوا اليه حتى لو اراد من يتصدى للارشاد ان يحملهم على المسائل الشرعية البيضاء النقية التي تبدلوا بها غيرها لنفروا عن ذلك ولم تقبله طبائعهم، ونالوا ذلك المرشد بكل مكروه ومزقوا عرضه بكل لسان، وهذا كثير موجود في كل فرقة من الفرق لا ينكره الا من هو منهم في غفلة

(لها بقية)

(١) لعل الاصل: بكثير من المسائل

القياس في العربية

« للاستاذ العلامة الشيخ محمد الخضر »

الحمد لله الذي جعل العربية أشرف لسان ، وأنزل كتابه الحكم في أساليبها الحسان ، والصلاة والسلام على من بهر البلغاء بلهجته البارعة ، وعلى آله وصحبه العاملين على منوال حكمته الرائعة ، أما بعد فقد كنت أيام دراستي لعلم العربية امر على احكام تختلف فيها آراء علمائه فيقصرها أحدهم على السماع ويأذن الآخر في القياس عليها دون ان يذكروا الاساس الذي قام عليه الخلاف ، فأرى التمسك بمثل هذه الاقوال من التقليد الذي لا ترتاح اليه النفس ولا سيما حين اذكر ان كثيراً من أصحاب هذه الاقوال قد تلقوا العربية من كتب يمكننا الاستقاء منها ، فأخذت ألفت نظري الى الاصول العالية التي راعوها في أحكام السماع والقياس حتى ظفرت بقواعد وقفت على تفاريق منها في صريح كلامهم وانتزعت شذوراً أخرى من موارد أحكام جزئية تقصيت آثارها في ابواب شتى

ولما شرعت في مدينة دمشق بمطالعة بعض الكتب العربية كمغني اللبيب بمحضر طائفة من أذكياء الطلبة كنت أذهب في تقرير مسائل السماع والقياس على تلك الاصول التي لم تدخل بعد في سلك التأليف، وعند هذا اقترح علي أولوا الجد منهم جمعها وتحريرها ليكونوا على بينة منها خلال المطالعة فطاوعتهم على ما اقترحوا حتى تكاملت في مقالات تشرح حقيقة القياس وتفصل شروطه وتحرر مواقعه واحكامه

تمهيد

لا يكون الكلام عربياً فصيحا الا اذا صحت مفرداته واستقام تأليفها ، أما صحة مفرداته فبي النطق بحروفه على مقتضى الوضع من غير ان تغير بنقص أو زيادة أو ابدال او قلب في هيأة ترتيبها أو حال حركتها وسكونها ، وأما استقامة تأليفها فبانطباقها على أسلوب نسجت عليه العرب في مخاطباتها . ولا تتحقق هذه المطابقة الا برعاية احكام التقديم والتأخير والاتصال والانفصال والحذف والذكر

وهل تتوقف في اطلاق الكلم وتأليفها على معرفة وضعها الخاص ونظمها

الوارد بحيث لا نستعملها حتى يثبت لدينا من طريق الرواية كيف نطق بها العرب ؟ او أبقى واضع اللغة طريق القياس مفتوحا فيسوغ لنا ان نلحق الكلم بأشباهها في هيأة مبانيها او نسق تركيبها ونسوي بينها في الاحكام اذا أعوزنا السماع؟

هذا موضع تشعبت فيه انظار الباحثين في العربية ، فبعد اتفاقهم على العمل بالقياس وتضافر عباراتهم على انه من مآخذ اللغة غلا بعضهم في التعلق به واتسع في مجاله الى ما يخرج بالكلام عن صبغته العربية ، وضيق آخرون النطاق الى حد يقرب من موقف الجامد على الرواية في اوضاع الكلم وتصرفاتها

وقد انتبذ المحققون بين هذين الطرفين مسلكا يبقي على اللغة شعارها ويبسط في نطاقها بمقدار ما يتسوغه ذوقا كل الشيح والقيصوم

ولا نجد عالما مفردا او أهل بلد اطردوا في هذه الجادة ولم يحيدوا عنها في قضية فكانت جميع أقوالهم في محل الاعتدال ، بل ترى القول الحق والقياس الوسط يدور بين مذاهبهم فيصيبه هذا تارة ويحرزه مخالفه تارة أخرى ، وذلك شأن العلوم التي يستند في تقرير قوانينها الى اجتهادات العقول

الحاجة الى القياس

وضعت اللغات ليعبربها الانسان عما يبدو له من المآرب ويتردد في ضميره من المعاني ، ومن البين جليا ان المعاني تبلغ في الكثرة الى ان تضيق عنها دائرة الحصر ، وتنتهي دونها ارقام الحاسبين ، فلم يكن من حكمة الواضع سوى ان وضع لبعض المعاني الفاظا عينها كالسماء والمطر والنبات ، ولوح الى البقية بمقاييس تصاغ الكلم في قوالبها فتدخل في زمرة ماهو عربي فصيح

ولولا هذه المقاييس لكانت اللغة اضيق على المتكلم بها من مفحص قطاة فيقع في نقيصة العي والفهاهة ، ويكثر من الاشارات التي تخرج به عن حسن السمت والرصانة ، ويرتكب التشابيه محاولا بها تقريب المرام من فهم المخاطب لا كما يستعملها اليوم حلية للمنطق ومظهرا من مظاهر البلاغة

ولو فرضنا صحة ان يوضع لكل معنى لفظ يختص به كأن نجنح الى ان منشىء اللغة هو مبدع الخليقة لكان الحرج الذي تقع فيه اللغة ان تضيق المجلدات الضخمة عن تدوينها ، وتعجز النفوس الناطقة عن حفظ مافيه كفايتها فالقياس طريق يقرب به تناول اللغة ووسيلة تمكن الانسان من النطق-

بآلاف من الكلم والتراكيب دون ان تقرن سمعه أو يحتاج في معرفتها الى مطالعة القاموس أو اللسان

وربما يلوح لك ان الالفاظ المرادفة تغني عن القياس في الكلم المفردة لو صرفها الواضع الى المعاني التي لم يعين لها اسماء . فنقول ان للمترادفات مجالا فسيحا وأثرا بليغا في الفصاحة والبلاغة ، فلا يصح ان تكون العربية عارية منها . ثم انها على كثرتها لاتبلغ ان تسد مسد القياس في مثل المصادر والافعال والاوصاف المشتقة وجموع التكسير فضلا عن كون الكثير من هذه المترادفات انما نشأت من لغات متعددة

ما القياس ؟

يسند القياس أحيانا الى العرب أنفسهم فيكون من قبيل التنبيه على علة الحكم الثابت عنهم بالنقل الصحيح ، كما قال النحاة اعرب الفعل المضارع قياسا على الاسم وحمل اسم الفاعل قياسا على الفعل ، ودخلت الفاء خبر الموصول في مثل قولهم « من يأتيني فله درهم » قياسا للموصول على الشرط

ويضاف تارة الى الباحثين عن أحوال اللفظ العربي فيراد منه أحد معان ثلاثة (أحدها) ان تعمد الى اسم ورد استعماله في معنى يشتمل على وصف يناسب التسمية كالخمر فتمديه الى معنى آخر تحقق فيه ذلك الوصف وتجعله من مدلولاته كالنبيذ تمده فيما يتناوله اسم الخمر حيث كان يخمر العقل ويستره ، وهذا النوع من القياس هو الذي ينفيه المحققون من الاصوليين بقولهم لاتثبت اللغة بالقياس

(ثانيها) الحاق اللفظ بأمثاله في حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامة كصيغة التصغير والنسب والجمع ورفع الفاعل وبناء العلم والنكرة المقصودة في النداء

(ثالثها) اعطاء الكلم حكم ما ثبت لغيرها مما هو مخالف لها في نوعها كما اجاز الجمهور ترخيم المركب المزجي قياسا على الاسماء المنتهية بتاء التأنيث ، واجاز ابن مالك حذف العائد المجرور في الصلة اذا تعين حرف الجر قياسا على حذفه في الجملة الخبرية ، والمعنيان الاخيران هما موقع النظر ومجال البحث في هذه المقالات وآثرت للفرق بينهما التعبير عن الاول بالقياس الاصلي وعن الثاني بقياس التمثيل

والـكلم أحوال في نفسها ، وأحوال من جهة ما يقترن بها ، فيتوجه النظر
، القياس الى الاحوال العارضة لها من حيث مبانيها المفردة كاشتقاقها ووضعها
الى الاحوال الجارية عليها من جهة نظم بعضها في سلك بعض ، وترجع احوال
نظم الى الاتصال والانفصال والتقديم والتأخير والحذف والذكر والعمل
الاعراب والبناء والاستعمال . فكان المقصد من هذا التحرير يدور على البحث
، القياس الاصلي والقياس التمثيلي ومباحث مشتركة بينهما

المقالة الاولى في القياس الاصلي

ما يقاس عليه

يجمع اللسان العربي تحت اسمه لغات شتى ، ولـكنها تختلف فيما بينها
تلافاً يسيراً مثل اختلافها في بعض أحوال الـكلم من حركة وسكون او
راب وبناء أو اعمال واهمال أو ترتيب حروفها أو ابدال بعضها من بعض أو
يادة والحذف

تتفاوت هذه اللغات بالجودة وفصاحة اللهجة ، وجميعها مما يصح القياس
يه ، قال ابن جني في الخصائص : اللغات على اختلافها كلها حجة والناطق على
اس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء وقال أبو حيان في شرح التسهيل .
كل ما كان لغة لقبيلة صح القياس عليه وقال البطليوسي في شرح الفصيح
شهور في كلام العرب ماء ملح ولـكن قول العامة مالح لا يعد خطأً وانما هو
ة قليلة . ومن اعتمادهم على هذا الاصل كان الصحيح عندهم جواز القياس في
لديم عامل كم الخبرية عليها لانه لغة حكاها الاخفش عن بعض العرب

ويعتمد في تقرير الاحكام اللفظية على أقوال الجاهلية كامرىء القيس
زهير ، والمخضرمين كحسان ولبيد ، والاسلاميين كالفرزدق وجرير وذي الرمة ،
أما المحدثون ويدخل في زمرتهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو تمام فلا يعول
، الاستشهاد على اوضاع الـكلم واحوالها التركيبية على شيء من منشآتهم أو
نظوماتهم ، ولهذا ترى النحوي يسومهم سوء التخطئة والتلحين حيث
نموا فيما يخالف القواعد المسلمة ، واذا كان الحـكم الذي لم تطابقه عبارتهم
ن مواقع الخلاف أقام لهم العذر بأنهم قد بنوا كلامهم على المذهب الضعيف ،

م اذا عثر على مثل صنيعهم الصادر من الجاهليين أو الاسلاميين لايسعه الا ان يقضي فيه بالشذوذ أو يقتحم في تصحيحه طريقة التأويل

وقال الزمخشري في كشافه بعد ان استشهد بشعر لابي تمام « وهو وان كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه » وتلقى هذه المقالة الشهاب بسماع المقلد فقال في شرح الدرة « اجعل ما يقوله المتنبي بمنزلة ما يرويه » وقد كشفنا فيما كتبناه في حياة اللغة العربية عن وجه الخطأ في هـذه المقالة ، وكيف يحتج بأقوال هؤلاء وقد عثروا في اغلاط كثيرة لايستطيع أحد السبيل الى تخريجها على محل صحيح ، فهذا أبو نواس يقول : —

وإذا نزعت عن الغواية فليكن لله ذاك النزع لا للناس

والصواب في مصدر نزع عن الشيء انما هو النزوع

وهذا أبو تمام يقول : —

لمذلته في دمنتين تقادما ممحوتين لزينب وسعاد

والصواب تقادمتا

وهذا المتنبي يقول : —

فأن يك بعض الناس سيفا لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

والصواب في جمع بوق بوق كمرد او ابواق

ومن لايتمد في تقرير احكام اللفظ على استعمال المحدثين يرى ان استناد بعض المتأخرين في تصحيح بعض الكلم الى استعمال أحد أهل العلم غير سديد ، يرد بعضهم على صاحب القاموس في قوله « الا نموذج لحن » بأن الزمخشري سمى كتابا له بالانموذج ، والنووي عبر به في المنهاج عند قوله « انموذج المتماثل » وهو رد غير مبني على أصول العربية اذ لاحجة الا في كلام من ينطق بالعربية عن سليقة ، وهذا الشرط لايتحقق في أبناء المائة الخامسة كالزمخشري أو المائة السابعة كالامام النووي رضي الله عنه ، وكم من امام في العربية ينطق أو يؤلف بعبارة تخالف مذهبه الصريح ، ألم يشترط ابن هشام في كتاب المغني لدخول هاء التنبيه على الضمير كون خبره اسم اشارة ولم يحتفظ بهذا الشرط فقال في خطبة الكتاب نفسه « وهاأنا بائح » ووقع صاحب القاموس في هذه الهفوة بعينها فشرط لاتصال حرف التنبيه بالضمير

ماشرطه ابن هشام من الاخبار عنه باسم اشارة ولم يقم على ماشرط فقال في خطبة كتاب القاموس « وها أنا أقول »

ويؤكد لك عدم صحة الاحتجاج بما يستعمله علماء العربية ان صاحب القاموس صرح بأن كلمة بعض لاتدخلها اللام وهو يعلم كما نقل عقب هذا الحكم ان سيبويه والاخفش قد استعملاها في كتابيهما

ونحتج بالكتاب الحكيم ونعمل بالقياس على ظواهره ماطابقت مقتضى البلاغة ، ولا نتبع سبيل الذين يحيدون به الى جانب التأويل انتصاراً لما سبق الى ظنونهم وتقرر في مذاهبهم من أحكام فقهية أو عربية ، قال الفخر الرازي في تفسيره : اذا جوزنا اثبات اللغة بشعر مجهول فجواز اثباتها بالقرآن العظيم أولى . وكثيرا ما نرى النحويين متحيرين في تقرير الالفاظ الواردة في القرآن فاذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهول فرحوا به ، وأنا شديد التعجب منهم فانهم اذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلا على صحته فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحته كان أولى ، وقال ابن حزم في كتاب الفصل: ولا عجب أعجب ممن ان وجد لامرىء القيس أو لزهير أو لجرير أو الحطيئة أو الطرماح أو لاعرابي اسدى أو سلمي أو تميمي أو من سائر أبناء العرب لفظا في شعر اونثر جعله في اللغة وقطع به ولم يعترض فيه ثم اذا وجد لله تعالى خالق اللغات وأهلها كلاما لم يلتفت اليه ولا جعله حجة وجعل يصرفه عن وجهه ويحرفه عن مواضعه ويتحيل في احالته عما أوقعه الله عليه

ومن أمثلة ما اشار اليه ابن حزم انه ورد الفصل بين المصدر المضاف وفاعله المضاف اليه بالمفعول به في قوله تعالى (قتل أولادهم شركائهم) كما قرأ ابن عامر بنصب أولادهم وخفض شركائهم فقضى عليها الزمخشري بالخطأ وقال الذي حمل ابن عامر على ذلك انه رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوبا بالياء ، وذهب السكاكي في مفتاحه الى تلقي القراءة بالتسليم وفاقا لمن يقول ان القرآت السبع متواترة ولكنه تأول الآية على تقدير مضاف اليه يتصل بقوله « قتل » ومضاف عند قوله « شركائهم » والمقدر في الموضعين من نوع المنطوق به فيكون سبك الآية بعد التصريح بالمقدر « قتل شركائهم أولادهم قتل شركائهم » ثم قال وهذا وان كان فيه نوع من البعد فتخطئة الثقات والفصحاء ابعد

والذي نعتمده في مثل هذا ان نتلقى القراءة المتواترة بالقبول ولا نحمل

الآية مالا تطيقه بلاغتها من اعباء هذه التقادير وتعسفها كما صنع السكاكي بل نبقيها على ظاهرها ولا نسلم ان الفصل في مثل هذا مخالف للفصاحة ولاسيما بعد ان أورد له ابن جني في الخصائص شواهد متعددة

ولا اخال أحدا يعول في مثل هذا على ذوقه فيقول ان الذوق ينفر من صورة المعنى الذي ينفصل فيه بين المضاف والمضاف اليه بأحد معمولات المضاف، فان مثل هذا لا يرجع فيه الى ملاءمة الطبع بل مداره على ما يجري به الاستعمال ويثبت في الرواية فما تجده واردا في الكلام الفصيح نعلم انه لا يكدر من مشرب الفصاحة العربية ولا يثلم من سور البلاغة خشيلا

ومما يقرب لك ان حكم الفصل بين الكلم لا يرجع فيه الى الذوق وانه عائد الى ما يسمع من كلام المشهود له بالفصاحة في تلك اللغة ان اللغات تختلف فيه اختلافاً كثيراً ، ففي اللسان الالماني مثلا يفصلون بين اداة التعريف والمعرف بجمل كثيرة ، وربما كان الفعل مركبا من قطعتين فيضعون القطعة الاولى في صدر الكلام ويلقون الاخرى في نهايته فيتفق ان يكون بين القطعتين كلمات فوق العشرة ، وتراهم يفصلون بين علامة الاستقبال والفعل بجمل متعددة ، ولا شبهة ان ارتباط اداة التعريف بالمعرف أو بعض اجزاء الكلمة ببعض أو علامة الاستقبال بأصل الفعل أشد من ارتباط المضاف بالمضاف اليه . فلاحرج على اللغة ان تبيح الفصل بين المضاف والمضاف اليه ولاسيما حيث تكون علاقة الفاصل بالاسم المضاف ليست من علاقة المضاف اليه ببعيدة كالمفعول به

وأما الحديث النبوي فقد جرى الجمهور على عدم الاحتجاج به لكثرة ما وقع فيه من الرواية بالمعنى واعتد به ابن مالك وأخذ بالقياس عليه في أحكام شتى معتمدا على ان روايته باللفظ هي الاصل فنعمل بموجبها الى ان يثبت انه نقل بالمعنى ، ومن أمثلة ما احتج عليه ابن مالك بالحديث انه ورد في أبيات متعددة فعل الشرط مضارعا والجزاء ماضيا فاجاز الفراء وابن مالك العمل على هذا الاسلوب ، ومنعه الاكثر بدعوى ان ما وقع في تلك الشواهد من قبيل ما دفعت اليه الضرورة ، فاستدل ابن مالك على جوازه في حال السعة بما روى الامام البخاري من قوله عليه الصلاة والسلام « من يقم ليلة القدر ايمانا واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »

وقال ابن حزم عقب الكلام الذي نقلناه عنه في الاحتجاج بالقرآن واذا

وجد — يعني الباحث في العربية — لرسول الله صلى الله عليه وسلم كلاما نمل به مثل ذلك — يعني الصرف عن وجهه والتحريف عن موضعه — وتالله لقد كان محمد بن عبد الله قبل ان يكرمه الله بالنبوة وأيام كونه بمكة اعلم بلغة قومه وافصح فيها فكيف بعد ان اختصه الله للنذارة واجتباه للوساطة بينه وبين خلقه ؟ اه وكلام ابن حزم هذا لم يصادف المفصل في رد مذهب الجمهور اذ هم لم يمتنعوا من الاستشهاد بالحديث لقلة فصاحته وانما لم يأخذوا به في العربية لما عرفت من احتمال روايته بالمعنى

والحق ان الاحاديث التي تعددت أسانيدها ولم يختلف لفظها يبعد فيها احتمال الرواية بالمعنى فيصح الاحتجاج بها من غير شبهة

القياس على الشاذ

للحكم الذي ورد به السماع النادر أربعة أنواع (أحدها) ما لا يعارضه قياس ولا سماع آخر ، وهذا يكتفون في اطراده بالشاهد الواحد ولا يشترطون له السماع الفاشي ، ومن هذا قولهم شنأي في النسب الى شنوءة فقد اكتفى بها سيبويه وغيره وجعلوا القياس في النسب الى فعولة على الاطلاق فعلي ، ولم تقع اليهم من شواهده غير هذه الكلمة المفردة

(ثانيها) ما يخالف القياس والسماع ، وهذا لايغني فيه المثال النادر قطعا، وقد حاد الاخفش عن قصد هذا السبيل حين سمع قولهم . هداوي في جمع هدية فجعله مقيسا في كل ما كان لامه ياء والحال انه لم ينقل منه الا هذه الكلمة الشاذة عن السماع والقياس اذ المسموع والموافق للقياس في مثل هذا بقاء الياء بحالها فيقال هدايا وعطايا ومزايا وبلايا وسرايا ودنايا

(ثالثها) ما يخالف القياس ولا يكون السماع مصادما له كما ورد تصغير فعل التعجب في قولهم : ما اميلحه وما احيسنه . فهذا وارد على خلاف القياس اذ التصغير من خصائص الاسماء ولم تضرب فيه الافعال بسهم ، وصيغة التعجب من قبيل الافعال الماضية ، وانما كان تصغير الفعل غير مصادم للسماع لان العرب لم يدلوا على معنى التصغير فيه بصيغة أخرى حتى يقال هذه الصيغة أعني اميلحه واحيسنه مخالفة للمسموع .

(رابعها) ما يطابق القياس ويخالف السماع كما ورد خبر عسى اسما صريحا في قوله

« عسى الغوير ابؤسا » وقوله « اني عسيت صائما »

وهذا مطابق للقياس لان الاصل في الخبر الافراد ، ومخالف للسماع اذ المعروف في خبر عسى مجيئه مضارعا مقرونا بان أو مجردا منها

وهذان القسمان أعني ماخالف القياس فقط أو السماع دون القياس هما محل الخلاف بين علماء العربية فالكوفيون يعتدون بما ورد من ذلك على سبيل الندرة ويعملون بالقياس عليه . قال صاحب الافصاح : عادة الكوفيين اذا سمعوا لفظا في شعر أو نادر كلام جعلوه بابا أو فصلا . والبصريون يمتنعون من القياس على الشاذ ويذهبون في مثله الى ان قائله نحا به خلاف ما يظهر منه و يردونه الى الاصل المعروف عندهم على طريق من التأويل، وبعض النحاة كابن مالك لا يكلف نفسه تأويله ولا يقبله في موضع المطرد بل يصفه بالشذوذ أو انه خرج مخرج الضرورة ، والى هذه الطريقة اومأ ابن السراج في الاصول بقوله : ليس البيت الشاذ أو الكلام المحفوظ بادنى اسناد حجة على الاصل المجمع عليه وتأويل هذا كتأويل ضعفة الحديث واتباع القياس في الفقه . ومن أمثلة هذا انهم ذكروا في شروط افعل التفضيل ان لا يكون اصل الوصف على وزن افعل نحو ابيض واسود ولما جاء قول الشاعر

جارية في درعها الفضفاض ابيض من اخت بنو اباض

انزله الكوفيون منزلة المقيس عليه ، وتأوله البصريون على انه من « باض فلانا » اذا غلبه وفاقه في البياض ، وابقاه ابن مالك على ظاهره والقاه الى قسم المسموعات الشاذة

والاصوب في كثير من الشواهد طريقة من يقضي عليها بالشذوذ ولا يذهب فيها مذهب التأويل فان من التأويلات التي يرتكبها بعض البصريين مايكاد الناظر — لتعسفها وبعدها عن نظم اللفظ — يقطع بانها لم تقع في قصد الشاعر ولا حامت حول قريحته

ومن الاقوال الشاذة ما لا تجد التأويل فيه مدخلا ، ومن شواهده ان البصريين يمنعون ان تجمع الصفة التي لاتقبل تاء التأنيث جمع مذكر سالم نحو اسود واحمر ، واجازه الكوفيون تمسكا بقول الشاعر

فما وجدت نساء بني تميم حلائل أسودين واحمرينا

ولا يتخلص البصريون من هذا الشاهد الا بطرحه الى النادر الذي لا يقوم عليه القياس

والتأويل انما يقتحمه البصريون اذا كان الحرف المخالف للمعروف في اللسان واردا عن فرد أو فردين ممن يتكلم باللغة المألوفة ، واما اذا ثبت انه لغة قبيلة فلا وجه لتأويله والخروج به عن ظاهره ، ولهذا أبطل ابن هشام تأويلات أبي علي الفارسي وابي نزار لقولهم « ليس الطيب الا المسك » برفع المسك لان أبا عمرو بن العلاء أثبت ان رفع خبر ليس الواقع بعد « الا » لغة تميم . والتحقيق او الشاذ على قسمين

أحدهما — أن يكون كلام العرب سائراً على سنة معروفة ووضع عام فتسمع الكلمة أو الكلمتان ممن لا يعرف بالفصاحة وهي تخالف المعروف في الاسلوب فهذا لا نقيس عليه قطعاً ، بل الكلمة ونحوها لا تنتقض بها القاعدة التي يجري عليها الفصحاء في عامة تخاطباتهم ولو نقلت عن فصيح اذ يجوز ان تكون صدرت منه على وجه الغلط أو القصد الى تحريف اللغة ، فان السنة الفصحاء قد تقع في مزلة الخطأ وتطوع لهم متى قصدوا الى تغيير الكلمة عن وضعها المألوف لهزل ونحوه

ثانيهما — ما يرد في الكلام الفصيح ونتحقق انه لم يصدر عن خطأ أو تلاعب في أوضاع اللغة مثل آيات الكتاب الحكيم والاحاديث التي تعددت اسانيدها ، فهذا يصح لنا ان نضمه بمكان القياس وننسج على مثاله وان اباه البصريون والكوفيون ، فلا نبالي ان نؤكد بلفظ « اجمعين » منفردة عن لفظ « كل » وان منعه اكثرهم لوروده في قوله تعالى (لاغوينهم اجمعين — وان جهنم لموعدهم اجمعين — لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين)

القياس فيما يفتقر الى التأويل

قد يستعمل نوع من الكلام على وجه شائع ولا يستقيم المعنى الا بتأويله ، ومقتضى مذهب الجمهور المنع من القياس عليه ولو كان وجه تأويله مما يسعه القياس ، وهذا كما قالوا في المصدر الذي كثر مجيئه نعتاً وحالا انه مقصور على السماع ، مع انهم يؤولون ماورد منه على تقدير مضاف أو تخريجه على مجاز . وقالوا ان اسم الزمان لا يخبر به عن الذات ، وأولوا نحو قولهم (الليلة الهلال) على تقدير لفظ طلوع مضافا الى الهلال . والحق ان المنع من القياس في مثل هذا مشروط بما اذا لم يقصد المتكلم الى تأويل قريب ووجه مقيس وهو مذهب ابن مالك ، اما اذا نوى اسم معنى يضيفه الى مابعده واستقام به المراد فانه

يلتحق بسائر الجمل التي يحذف فيها المضاف لقرينة تشير اليه

ومن هذا القبيل انكار الحريري لقولهم « هو قرابتي » وليس بمنكر من القول متى علم المتكلم بان القرابة مصدر وعمد الى اطلاقه على ضرب من المجاز أو التقدير ، ويدخل في هذا الصدد حكم صاحب المصباح على قولهم «اذن العصر» بالخطأ مع ان اسناد الفعل الى زمانه على وجه المجاز ليس بعزيز ، وانما يحكم عليه بالخطأ اذا لم يصدر من بليغ ينحو بالكلام نحو خلاف الظاهر . ويشاكل هذا قول ابن قتيبة في أدب الكاتب «الملة يذهب الناس الى انها الخبزة »فيقولون : اطعمنا ملة . وذلك غلط انما الملة موضع الخبزة قال ابن السيد في شرحه «وليس يمتنع عندي ان تسمى الخبزة ملة لانها تطبخ في الملة كما يسمى الشيء باسم الشيء اذا كان منه بسبب أو يخرج على حذف المضاف أي خبز ملة »والصحيح ما عرفته من ان التخطئة في مثل هذا او التصويب مما يرجع فيه الى حال المخاطب اذ الذي يطلق الملة على نفس الرغيف ويظهر لك من قرينة حاله أو صريح مقاله انه اطلقها عن اعتقاد أنها موضوعة له بوضع حقيقي لا يخلص من سهام التخطئة ولو احتملت عبارته وجوهاً في التأويل متعددة

وحكم ابن قتيبة على قول العامة «تجوع الحرة ولا تأكل ثديها » بانه خطأ، وقال : الصواب بثديها . فقال ابن السيد أما مايذهب اليه العامة من ان المعنى لا تأكل لحم ثديها فهو خطأ ، ولكن يجوز على التأويل بحذف المضاف أي اجر أو ثمن ثديها أو على المبالغة بجعل أكلها لاجر ثديها بمكان أكل الثديين انفسهما . والتفصيل الذي سبق من النظر في مثل هذا الى حال المتكلم يجري هنا لولا ان العبارة مثل ، فمن قصد بها ضرب المثل على ماورد فقد اخطأ من جهة تحريف المثل وان كان التركيب في نفسه صحيحا

وجه اختلافهم في القياس

من الجلي ان العرب لم يصرحوا بعمل القياس في شيء من أوضاع كلامهم وانما علماء اللسان يتتبعون موارده ويتعرفون احواله فاذا وقعوا على حال في مفردات الالفاظ أو مركباتها قدعمل العرب بها على وجه منضبط ركبوا منها قاعدة ليقاس على تلك الموضوعات المسموعة مالم ينقل من نظائرها

فمن اسباب اختلافهم في القياس ان يتوفر لدى العالم من استقراء الآحاد

ما يكفي لتركيب القاعدة فيعيز القياس ، ولا يبلغ الآخر بتتبعه مقدار ما يؤخذ منه حكم كلي فيمنع أن يكون مقيساً

وقد يتساوى الفريقان فيما عرفوه من الشواهد ويكتفي به احدهما في فتح باب القياس عليه ، ويستقله الآخر فلا يتخطى به موضع السماع ، وهذا كاختلافهم في فعل المعتل العين فيظهر من كلام سيبويه ان جمعه على افعال مطرد، وذهب ابن مالك في التسهيل الى انه غير مقيس ، ويرجع خلافهما الى ان ماورد من نحو مال واموال وخال وأخوال وحال واحوال و ناب وانياب وباب وابواب هل بلغ مقداراً يكفي لان يجعله مطرداً أم لا ؟ ومن هذا القبيل اختلافهم في جمع الجمع ، فقد ورد منه نحو العشرين كلمة ، وسبب اختلافهم في جعله مقيساً انما هو تفاوت أنظارهم في ان ما سمع — : هل هو من الكثرة بحيث يقاس عليه او انه لاينهض به حتى يجعله مطرداً ؟

وقد يختلفون في القياس نظراً الى مايقف لهم من الاحوال التي تعارض السماع ، فالكوفيون الذين يكتفون في بعض الاقيسة بالشاهد الواحد قالوا : ان صيغة المبالغة فعال ومفعال وفعول لاتعمل عمل اسم الفاعل . واخذوا يؤولون الشواهد التي سردها البصريون واعتذروا عن عدم قبولها والاخذ بظاهرها بأن اسم الفاعل انما عمل لشبهه بالعمل المضارع في وزنه والصيغ المذكورة لم تحرز الوزن الذي قرب اسم الفاعل من اصله الذي هو المضارع، والحقها البصريون بمنزلة اسم الفاعل حسب ما شهدت به الرواية وهدموا مااعتذر به الكوفيون اذ قالوا في جوابهم : ان المبالغة التي قوي بها المعنى في تلك الابنية جبرت مانقصها من الشبه في اللفظ ، فتقابل مشابهة اسم الفاعل للمضارع في اللفظ بزيادة المعنى الذي اختصت به أبنية المبالغة فتحصل الموازنة والتساوي في طلب العمل من غير تفاوت .

تعارض السماع والقياس

اذا تتبعنا جملة من أقوال العرب حتى قامت لنا من استقرائها قاعدة ، ثم وقعت الينا أمثلة نطقوا فيها على خلاف ما تقتضيه هذه القاعدة ، فهل نأخذ في هذه الامثلة بالقياس أو نقف فيها عند حد السماع ؟

هذا النوع تعددت صوره وتشعبت مقالات العلماء في حكمه ، وسنلقي

عليك ماتراه صفوة آرائهم وخلاصة بحثهم

للامثلة الواردة على خلاف ما تقرر في الاصول أربعة أقسام (أحدها) كلمة أو كلمات قليلة تدور في مخاطباتهم كثيرا ولم ينطقوا فيها على وفق القاعدة ولو مرة مثل استحوذ واستصوب اللذان وردا على خلاف القاعدة القاضية بقلب واوهما ألفاً نحو استقام واستعاذ . وهذا القسم يجب استعماله على ماسمع من العرب ولا تنتقض به القاعدة ولا يقاس عليه غيره

(ثانيها) ما يجيء مخالفا للقاعدة في أكثر مخاطباتهم وورد على وفق القاعدة في أمثلة قليلة كإرادهم اسم الفاعل من أبقل على وزن فاعل فقالوا «مكان باقل» وقياسه «مبقل» وقد تكلموا في بعض الاوقات ، ومن هذا قولهم في أفعل التفضيل من الخير والشر «خير وشر» وقياسه «أخير وأشر» وقد نطقوا به في بعض الاحيان ، وهذا يجوز لك العمل فيه على الوجهين بيد ان الوجه الاكثر في السماع أرجح لانك تتكلم بلهجة قوم وجمهوره ولانه مألوف عند المخاطبين أكثر من الوجه الذي قل في السماع

وما يرد في القراءة الصحيحة مخالفا للقاعدة والمسموع من كلام العرب فيما يظهر كقراءة «معائش» بالهمزة نعطيه حكم هذا القسم فنستعمل معايش مهموزة وغير مهموزة ولا نقيس على المهموزة غيرها مما كان على وزن مفعلة

(ثالثها) مالم يدر في كلامهم كثيرا وانما هي الكلمة أو الكلمات ترد في شعر أو نثر نادر مخالفة للقاعدة مثل ماحكي من قولهم «فرس مقوود ورجل معوود من مرضه» فهذا لا يؤخذ به في استعمال الكلمة نفسها فضلا عن ان يتخذ قياسا

(رابعها) أمثلة كثيرة تجيء على خلاف ماوضعوه قاعدة، وهذا يحتمل ثلاثة انظار (أحدها) طرح هذه القاعدة وعدم العمل عليها لانها ركبت على استقراء ناقص جدا (ثانيها) الاعتداد بها واجراؤها فيما لم يسمع فقط ثم الاقتصار فيما خالفها على ما ورد به السماع (ثالثها) التمسك بها والعمل عليها فيما سمع مخالفا لها ايضا بحيث يكون اللفظ ذا وجهين، وهما الوجه المسموع والوجه الذي تقتضيه القاعدة

ومن مواقع هذه الافكار مصادر الفعل الثلاثي ، قال أحد النحاة : انما يعتمد فيها على السماع ولا يصح القياس على ضوابطها ولو عدم السماع لانها كثيرة الانتقاض . وذهب سيبويه الى القياس عليها فيما اذا ورد فعل ولم نسمع كيف تكلموا بمصدره ولا يصح ان نقيس مع وجود السماع . وأجاز الفراء

القياس عليها ولو فيما ورد السماع على خلافها

ومقتضى مذهب الفراء حيث اجاز القياس في قواعد كثيرة الانتقاض وهي مصادر الثلاثي ولو فيما ورد السمع بخلافها ان يجيز القياس فيما ورد به السمع مخالفاً للقواعد الثابتة كقاعدة التصغير واسم الفاعل باحرى ، فيصح على هذا اخذ اسم الفاعل من شاب في صيغة فاعل وان كان المسموع أشيب ، وتصغير ليلة على ليلة كما قال المتنبي « لييلتنا المنوطة بالتنادي »

وان كان الوارد في تصغيرها لييلية . ويستفاد من عبارة صاحب التاج ان هذه الطريقة أعني طريقة الفراء تجري في مصادر مافوق الثلاثي أيضاً حيث قال عند قول صاحب القاموس «التبيان ويفتح مصدر شاذ» والفتح غير معروف الا على رأي من يجيز القياس مع السماع وهو مرجوح

القياس في الاشتقاق

لايجب على الناظر في المشتقات من اسم فاعل ومفعول وأفعل تفضيل واسم مكان وزمان وآلة عند ما يريد انشاء قواعدها ان يستقري جميع آحادها فانه يتعذر عليه الوصول الى هذه الغاية نظراً الى سعة اللغة وانتشارها الى ما لا يمكن الاحاطة به ، وانما يتتبع من جزئياتها الى ان يأتي على مقدار يفيد ظناً قوياً وثقة بان اللغة جارية في مثله على اعتبار قاعدة ، والذي لايبلغه استقراؤه يكون قاصداً لاجرائه في الكلام على مايطابق هذه القاعدة ، فيصح لنا ان نعمل على شاكلتها في كل لفظ يتفق دون ان نتوقف على سماع

وهاهنا اشكال لايزال يتردد على السنة طلاب العربية ، وهو ان واضع القاعدة اذا لم يلزمه استقراء جميع جزئياتها ويكفيه ان ينقص جملتها فما باله يصرح في بعض الافعال والمصادر - مثل ويح وويل ونعم وبئس وعسى وليس ويذر - بأنها لاتتصرف ولا يصح ان يشتق منها اسم فاعل او اسم مفعول او افعل تفضيل ؟ وأي فرق بينها وبين مالم يبلغه استقراؤه من المصادر والافعال فيسوغ لنا ان ناخذ منها أوصافاً ولا يجوز لنا ان ناخذ مثل ذلك من ويل ونعم وما شاكلها من المصادر والافعال التي يصفونها بالجمود ؟

وجواب هذا ان الافعال والمصادر التي لم يسمع لها فروع في الاشتقاق جاءت على ضربين (احدهما) مايكثر استعماله في موارد كلام العرب من غير أن

يتصرفوا فيه مثل ويل وويح ونعم وبئس وما يماثلها ، وعدم تصريفهم لها مع كثرة ترددها في محاوراتهم ومخاطباتهم دليل على قصدهم لابقائها على هيأتها فمن تصرف فيها فقد أتى بها على وجه قصد العرب الى تركه ، والناطق بمايقصون الى اهماله ناسج على غير منوالهم وناطق بغير لهجتهم

(ثانيها) ما لايكثر في مخاطباتهم ولا يدور على ألسنتهم حتى يستفاد من وروده بهيأة واحدة انهم قصدوا الى ترك تصريفه ، وهذا هو الذى نعمل به على طبق القاعدة وان لم يبلغنا او يبلغ الواضعين القواعد ان العرب تلفظوا فيه بصورة موافقة لها ، فيصح لواضع القاعدة او مقلده متى اطلع على فعل او مصدر من هذا النوع ان يشتق منه وصفاً بمقتضى القاعدة وان لم يره مستعملا في العربية الفصحى . قال ابو عثمان المازني : ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب الا ترى انك لم تسمع انت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول وانما سمعت بعضها فقست عليها غيره . وقال ابن جني بعد ان سرد امثلة من اسم المكان والمصدر الوارد ان على وزن اسم المفعول ـ : هذا كله من كلام العرب ولم يسمع منهم ولكنك سمعت ما هو مثله وقياسه .

فاذا اشتق العرب صيغة للدلالة على معنى واستعملوها في أمثلة كثيرة فانا نأخذ فيها بمذهب القياس ، ولهذا ترى سيبويه يصرح باطراد ما كان على وزن فعال من أسماء الافعال كنزال ودراك ، وخالفه المبرد فقال هو مسموع فلا يقال قوام وقعاد اذ ليس لاحد ان يبتدع صيغة لم تقلها العرب ، وقد عرفت ان الذي يفرغ الكلمة في قالب أبرزت فيه العرب أمثلة كثيرة على وجه منتظم لايقال عليه انه ابتدع صيغة لم تقلها العرب ، وليس للمبرد سوى ان ينازع في المقدار الذي سمع من صيغة فعال فيرد القياس بأن المقدار المسموع فيها لا يكفي في الدلالة على قصدهم لاطرادها

وجرى الشيخان في صيغة فعال الواردة في النسبة نحو بزاز وعطار على عكس هذه المسألة فذهب سيبويه الى انها غير مقيسة مع اعترافه بكثرة مواردها ، ورأى المبرد ان المقدار الوارد من أمثلة هذه الصيغة يكفي لجعلها قياسا فيقال عنده لصاحب الدقيق دقاق ولصاحب الفاكهة فكاه ولصاحب الشعير شعار : وقول صاحب القاموس ويقال لصاحب الحبر حبري لاحبار مطابق لمذهب سيبويه

(يتبع)

الرحلة السورية الثانية

٦

ذكرنا في النبذة الخامسة التي نشرت في الجزء الخامس ان مسلمي بيروت قد تجدد لهم ثلاث حالات اجتماعية وتكلمنا على الاولى منهن وهي المتعلقة بالنساء فبقي ان نقول كلمة في كل من الحالتين الاخريين وفاء بالوعد

(اتفاق المسلمين والنصارى)

الحالة الثانية الميل الى الاتفاق مع النصارى وهذه ليست جديدة بالمعنى المتبادر من الكلمة وهو انها حدثت بالتطور الذي أحدثته الحرب الاخيرة وما تولد منها، بل كانت من تأثير تطور سابق علبها نبه العرب كغيرهم الى المحافظة على جنسيتهم وكان السوريون أسبق العرب الى التنبه والبحث في ذلك من حيث ان لهم وطنا خاصا له حدود ومصالح خاصة قلما تشاركهم فيها الاقطار العربية الاخرى وأهله مؤلفون من أصحاب ملل ومذاهب يرجع أكثرها الى فريقين محمديين ومسيحيين ، بحيث يتوقف عمران البلاد وارتقاؤها على تعاون الفريقين وان كان أكثر مجموع أهالي — البلاد في غير لبنان — من الاولين كما أن أكثر رقبة الارض لهم

فالحق ان الشعور بالحاجة الى الاتفاق بين المسلمين والنصارى عدة محركات الحرب، وثلاثة قبلها وواحد بعدها، والاخير الذي سبق الى ذهننا عند كتابة النبذة الخامسة من الرحلة . أما المحرك الاول فهو الدستور الذي علق الآمال بوطنية جديدة عثمانية تقضي على دسائس التفرق في المصالح الوطنية بين الملل والنحل، ولكن لم تلبث هذه الآمال ان خابت فكانت خيبتها بمحرك أقوى وهو اضطهاد الاتحاديين العرب واجتهادهم في صرف قوى الدولة الى تقوية الجامعة التركية أو الطورانية واكراه سائر الشعوب العثمانية على الاندغام فيها بمحو لغتهم وجميع مميزاتهم القومية والوطنية ولا سيما السوريين والعراقيين من العرب، وتلا هذا المحرك الثالث وهو حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة انكسارا حرك المطامع الاوربية المستعدة للوثوب على البلاد العربية لاستعمارها — وعلى اثر ذلك تألف حزب اللامركزية في مصر والجمعية الاصلاحية في بيروت من المسلمين والنصارى، وباتفاق الحزبين مع بعض شبان السوريين المشتغلين

بتلقي العلم في أوربة تكون المؤتمر السوري وجعلت رياسة ادارته لحزب اللامركزية لانه أقوى الاحزاب وأظهرها واعمها

واما الحرب فقد كانت بويلاتها ومصائبها محركا انسانيا وطنيا للتعاطف والتراحم كما وصفنا في هذه الرحلة ووصف غيرنا من الكتاب في الجرائد السورية في جميع الاقطار

واما المحرك الاخير وهو الاحتلال فقد كان يجب ان يكون - بعد تلك المحركات الممهدة او المؤسسة - هو المتمم للبناء ولكنه كان هادما للاساس والقواعد وراجعاً بهؤلاء السوريين المساكين الى شر مما كانوا عليه قبل تلك التطورات أو المحركات الدافعات لكل فريق الى السعي للاتفاق مع الآخر وتكوين جامعة وطنية، وقد كان كل فريق مؤاخذاً في هذا اللوم الذي كان مظهراً لفقد التربية الوطنية والقومية وتغليب التعصب الديني على كل ماسواه حتى كأنه - او لانه - قد صار غريزة او ملكة راسخة لا تزول الا بجهاد طويل ينقرض فيه جيل ويتجدد جيل

ذلك بأن الاحتلال المختلط الذي تلا جلاء الترك عن سورية كان مذبذباً فقد سبق الامير فيصل بجنوده ورجاله الى احتلال البلاد باسم الحكومة العربية ورفع على معاهد الحكومة في مدنها علمه العربي الحجازي و كان الاهالي قد سبقوا الى تأليف حكومة وطنية مؤقتة وتلاه الاحتلال المختلط المثلث تحت قيادة الانكليز فالقسمة المثلثة فالقسمة الثنائية، ولما جاء رجال فيصل اولا خضع لهم الجميع ورفعت الحكومة اللبنانية علمه على دار الحكومة في (بعبدا) وكانت المبشرات بالثورة العربية والحكومة العربية الجديدة التي ستنقذ البلاد من الترك (؟) قد تغلغلت في البلاد بسعي الدولة البريطانية فكان مجيء رجال فيصل واستيلاؤهم على مصالح الحكومة منتظراً وعده الاهالي أمرا متفقا عليه بين الحلفاء - ومنهم ملك العرب - فتلقاه النصارى كالمسلمين بالرضاء والتسليم .

وههنا ظهر تقصير المسلمين وجهلهم بالسياسة وطبائع الاجتماع اذ شكلوا الحكومة السورية المؤقتة اولا والحكومة العربية ثانيا من انفسهم ولم يطلبوا كبراء النصارى في الجاه والعلم الى التشاور والاشتراك في تأليفها، وقد بحثت في هذه المسألة في بيروت وغيرها فاعترف لي بعض من ذاكرت فيها من المسلمين بالتقصير وانه لم يكن سوء نية اذ لم يكن عن تشاور بين المسلمين أنفسهم حتى يقال أنهم استأثروا بالاعمال وتعمدوا ان يكونوا وحدهم حكام البلاد، بل كانت

الاعمال في ذلك فردية فكل من يطمع في وظيفة يسعى اليها، وانما كان جل السعي الى ذلك من افراد المسلمين لما سبق لهم من التصدي لخدمة الحكومة والتعلم في المدارس العثمانية الرسمية لاجل ذلك، وقلما كان النصارى يتصدون لذلك ويستعدون له او يدخلون مدارس الدولة التي هي الوسيلة اليه. ولو كان للمسلمين حزب سياسي منظم لما فاته ان يغتنم هذه الفرصة لاتمام ما تأسس في تلك التطورات العربية من اسباب الاتفاق ودواعيه. نعم انه كان في البلاد جمعية سياسية سرية لها علاقة وارتباط بالامير فيصل ولكن اكثر افرادها من الشبان الذين لم ترتق بهم السياسة الى مثل هذا الفكر

لم تكد تستقر الحكومة العربية الفيصلية بالاحتلال العربي حتى تبعها الاحتلال المختلط من الانكليز والفرنسيس الذي قسم سورية الشمالية الى منطقتين: غربية ساحلية احتلتها الجنود الفرنسية وجعلت لها السيطرة عليها تحت رياسة القيادة الانكليزية المحتلة معها، وشرقية داخلية احتلها الجند العربي باسم حكومة الحجاز وان كان الجند نفسه مختلطا والمنظم منه مؤلفا من السوريين والعراقيين وقد جعل له السيطرة في هذه المنطقة تحت رياسة القيادة البريطانية أيضاً — وكان هذا التقسيم مقدمة لتنفيذ اتفاق سنتي ١٩١٦ و١٩١٧ وقد اعتمدت السلطة الفرنسية في ادارة المنطقة الغربية على صنائعها من النصارى ولا سيما الموارنة منهم فاستكثرت من الموظفين من هؤلاء فكانت كثرتهم مخرجة لمثل عددهم من المسلمين لان اكثر اعمال الحكومة كانت بأيديهم من عهد الترك ورأى النصارى ان الدولة قد دالت لهم فرضوا بذلك وسروا به ولم يكن للمسلمين يد عندهم في تلك الايام القليلة التي صار أمر الحكومة اليهم فيها فأعرضوا عن المسلمين بل صاروا يؤذونهم بالقول والفعل واعتزوا عليهم وعتوا عتوا كبيرا لم يفعل المسلمون شيئاً منه في دولتهم التي تعد بالايام لا بالشهور ولا بالسنين، ونسوا كل ما كان قبل ذلك من حرص المسلمين على الاتفاق معهم قبل الحرب العامة حتى رضوا ان يكون لهم نصف الاعضاء في مصالح الحكومة المنتخبة وغير المنتخبة وذلك فوق ما تقتضيه النسبة العددية العادلة التي تجري عليها جميع الدول الراقية وما كان من عطفهم عليهم وتضامنهم معهم في زمن الحرب. وقد اشتهر ما وضعوه من الاناشيد في ذم المسلمين واهانتهم وانشادها في الشوارع والاسواق في بيروت في يوم عيد الفصح. ولولا ان اعتصم

المسلمون بالصبر والحلم لوقت يومئذ مقتلة فاضحة تعد سبة لسورية ما بقي الدهر على ان المسلمين لم يكونوا قد يئسوا من سعي فيصل الى استقلال جميع سورية وجعل حكومتها عربية بل كان رجاؤهم في ذلك عظيما وقد شهد لهم بعض كبراء الضباط الانكليز على المسيحيين ولا نحب ان نشرح ذلك ونطيل فيه لئلا يعد انتصاراً منا لاهل ملتنا ونحن انما نكتب لاجل التأليف والاتفاق لا لتقوية الشقاق. وغرضنا ان نقول ان مسلمي بيروت شعروا في هذه الحالة بشدة حاجة البلاد في هذه المنطقة الى الاتفاق بينهم وبين النصارى على الوحدة الوطنية ولكن لم يجدوا منفذا للسعي . ويقابل ذلك في المنطقة الشرقية ـ حيث يقل المسيحيون ـ ان المسلمين كانوا والحكومة في ايديهم يجتهدون في استمالة النصارى واشراكهم في كل عمل ويودون اعطاءهم فوق ما يريدون بحسب النسبة العددية وقدجرت الاحزاب السياسية على ازالة الصبغة الاسلامية من الحكومة ارضاءا لهم وظهر اثر ذلك في المؤتمر السوري والقانون الذي وضعه للحكومة السورية العامة المتحدة فانا أذكر هذا وذاك لا لتسجيل الذنب الاكبر على النصارى وتصغير ذنب المسلمين أو تبرئتهم بل لاثبت به اخلاصهم في الميل الى الاتفاق

وقد كتبت وأنا في بيروت عدة مقالات في جريدة الحقيقة بامضاء (السيد) دعوت فيها الى الاتفاق بالحجج الناهضة والاساليب الجاذبة ، واجتناب كل ما ينفر من الغاية المقصودة فظهر لها تأثير في زيادة ميل المسلمين الى الاتفاق ولم يظهر لها في النصارى الا أثر ضعيف في بعض شبان المدرسة الامريكانية الجامعة وقيل لي ان آخرين من الاحرار المستقلين قد سروا بها ولكن لم يستجب الدعوة منهم احد ، ولولا ان كانت تلك المقالات فائضة من روح الاخلاص والانصاف والتلطف في الدعوة لوجد فيها المتعصبون من القوم والذين يخدمون سياسة التفرقة مآخذ للرد عليها ولكنهم لم يجدوا الى ذلك سبيلا ، وقد نقل الينا ان الاستعداد للاتفاق يقوى بعمل الزمان عاماً بعد عام . حقق الله الآمال

التربية الملية مع التعليم المصري

لقد نام المسلمون نومة اجتماعية أطول من نوم اهل الكهف وأثقل ، الموقظات التي تصخ الاسماع تتوالى من حولهم كالصواعق وقد ضرب على آذانهم فهم لا يسمعون ، ولما بعثوا وجدوا ما يعرفون من سير البشر قد تبدل فصار على غير ما يعهدون ، رأوا الغربيين قد سادوا العالم وتولوا ادارة شؤونه في

بلادهم وبلاد غيرهم من حيث يشعر أولئك الاغيار ومن حيث لايشعرون ، فاروا في امرهم لايدرون ما يصنعون

ماذا يعملون؟ ولماذا لايدرون؟ وكيف يعذر بهذا الجهل المسلمون؟ القرآن يصيح بهم من فوقهم، (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) وشواهد هذه القاعدة الاجتماعية القطعية بين أيديهم وعن ايمانهم وشمائلهم . . .

صفات الانفس التي يتوقف تغيير أحوال الامم بتغيرها هي ما يبعث على الاعمال ، من علوم وأخلاق ، وهما يكتسبان بالتعليم والتربيـة كما ورد في حديث « العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » فأما العلوم النظرية والفنون العملية ، فصناعات آلية ، ترتقي بارتقاء العمران، وليس لها دين ولا وطن ، بل يتبع فيها سير العمران واختلاف الزمن ، وأما الاخلاق والملكات النفسية ، التي تتجدد بها حياة الامم الاجتماعية ، فهي تختلف باختلاف الامم في المقومات والمشخصات الملية والقومية ، وتراعى فيها الغرائز القومية والوراثة الجنسية، « والناس معادن كمادن الذهب والفضة » هم كذلك في أفرادهم ، وفي جماعاتهم وأقوامهم ، فالقوم يعرض لهم القوة والضعف ، والعز والذل ، كما يعرض للمعدن الصقل والصدأ ، والتربية والتعليم للافراد والأقوام كالصقال للمعدن الذي يظهر رونقه الفطري ويزينه ويعظم الانتفاع به، ولا يقصد به تبديل جنسه ونوعه بتحويله الى نوع آخر ـ فلماذا لم يجار المسلمون الغربيين في أساليب التربية الملية والتعليم المدني ومدارسهم بين أيديهم في ديارهم ولا سيا بيروت منها ؛ فأعظم المدارس التي أسسها الافرنج فيها المدرسة الانجيلية الأمريكانية والكلية اليسوعية ، فلماذا لم يقتدوا بهم بتأسيس مدرسة قرآنية أو مدرسة محمدية ؟ على ان سائر المدارس التي أسسها الافرنج وتلاميذهم من النصارى الوطنيين دينية التربية ومنسوبة الى البطاركة والقديسين من رجال دينهم ، وياليت التربية الدينية فيها كانت مسيحية خالصة من شوائب الاهواء السياسية .كلا ! ان كل شعب من شعوب الافرنج قد بث في مدارسه التي أنشأها في الشرق دعوة سياسية تقضي فيها من روح الدين والمذهب فكان ذلك أكبر أسباب الشقاق الديني في سورية وقد كان هذا خفيا عن الدولة العثمانية الجاهلة المتساهلة وعن أكثر النـاس ولكن صار معروفا للعوام كالخواص ، اذ ظهر تأثيره بما تجدد من التفرق والشقاق ، بعد تلك المسائل التي مهدت للاتفاق . وهي ما أشرنا اليه في الفصل

الاول من هذه النبذة

علم مسلمو بيروت من ضرر مدارس الافرنج في هذه الايام فوق ما كانوا يعلمون وناهيك بها وقد حملها زوال الحكم العثماني من البلاد على التشدد في اكراه من يتعلم فيها من أولاد المسلمين على تلقي دروس الديانة النصرانية وحضور وعظها وصلاتها _ فافترصت ذلك بالقاء عدة خطب دعوت فيها الى تأسيس مدرسة كلية اسلامية ، ثم رغبت الى عمر بك الداعوق الذي كان رئيس البلدية ان يدعو كبار الاغنياء الذين يرجى منهم الخير الى داره لاجل دعوتهم الى الاكتتاب لهذا العمل فلبى بالارتياح ، ولما انتظم عقدهم ألقيت فيهم خطاباً بما يقتضيه المقام من الكلم الذي يرجى ان يقع موقع الاقناع من العقول ، والتأثير من القلوب ، وفتح عقب الفراغ منه باب الاكتتاب فدخله الاكثرون وأرجأ الاقلون ، ولكن كان ما كتبوه من المبالغ غير لائق بهذا المشروع العظيم ولا بباعث على الرجاء في النجاح فآلمني ذلك وحفزني الى القاء خطاب آخر كان شديداً بقدر شدة تألمي وتهيج شعوري حتى قال لي صديقي احمد مختار بيهم بعد أيام انه لايوجد أحد يقبل منه هذه اللهجة الشديدة سواك ولكن كان من تأثير الاخلاص فيه ان ضاعف كثيرمن المكتتبين ما كانوا كتبوه من التبرع

ثم ألفنا لجنة من كبار الوجهاء أهل الغيرة كانت تطوف على من لم يحضر ذلك الاجتماع في مكاتبهم ومخازن تجارتهم لاتمام الاكتتاب ، وافرادها عمر بك الداعوق وابو علي سليم علي سلام افندي واحمد مختار بك بيهم ومحمد افندي الفاخوري ورشيد افندي اللاذقي ورشيد رضا كاتب هذا . وقد بلغ الاكتتاب بالمبالغ التمهيدية بضعة الآف من الجنيهات مع اكتتاب سنوي، آخر وقد سافرت الى الشام قبل اتمام الاكتتاب فوقف سيره ولكن العمل لم يقف فقد ابتاعوا ارضاً واسعة بجوار الحرش باسم هذه المدرسة ستبنى فيها ان شاء الله تعالى

هذا ما انتهى اليه السعي والاستعداد لهذا المشروع وهو ليس مما تبيض به الوجوه ، الا اذا نظر اليه من حيث انه بدء حياة اجتماعية جديدة يرجى ان تنمي وتزداد بالعمل وقد كنا معشر الساعين اليه غير مغرورين بنهضتنا ومبلغ استعدادنا ولذلك اتفقنا على انه لا يرجى نجاحه وثباته الا اذا عهد به الى جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية التي ستكون ان شاء الله تعالى من أغنى الجمعيات الوطنية فقررنا نوط العمل بالجمعية ، وسعينا الى تجديد نظامها وتنظيم جلساتها

التي كانت معطلة فتم ذلك في أقرب وقت بمساعدة رئيسها صاحب الفضيلة مفتي بيروت أدام الله النفع به

ولما شعر المسيحيون بهذا السعي استكبره على المسلمين المستكبرون ، وكرهه لهم ومنهم الكارهون ، وكتبوا في جرائدهم اننا نريد لوطننا السوري مدارس وطنية ، لا مدارس دينية ، فالدين هو الذي فرق كلمتنا ، واغرى العداوة والبغضاء بيننا ، فرددت عليهم في جريدة الحقيقة بأن المدارس الدينية التي فرقت وفعلت ما فعلت هي مدارس مسيحية لا اسلامية ولا وطنية فاذا رضيتم بتركها واستبدال مدارس وطنية بها فاننا نضم أيدينا في أيديكم وأموالنا مع أموالكم وأولادنا مع أولادكم ، ولكننا نقول ان الدين لم يكن هو المفرق والمغري بالعداوة بأصوله وتعاليمه بل بسوء استعمال السياسة الاجنبية له وانا بالتربية الوطنية يمكننا أن نجعله من أكبر أسباب الاتفاق والتعاون ، وفي نصوص القرآن والانجيل ، ما يهدي الى سلوك هذه السبيل ، وهي التي سلكها فقيد الوطن البستاني الذي اتفق المسلمون مع المسيحيين على احترامه والاحتفال في هذا العام بذكرى مرور مئة سنة من تاريخه

فهلموا ننشئ مدرسة وطنية جامعة ونجعل في جانب منها مسجدا وفي جانب آخر كنيسة ، فان التربية لا تكمل بغير فضيلة والفضيلة لاتكمل بغير دين ، وفي كل من الدينين الاسلامي والمسيحي فضائل كافية ، وهي في الاكثر متفقة أو متقاربة . فليرب كل فريق منا أولاده على عبادات دينه وفضائله ، ومحبة وطنه والتعاون على ترقيته ، على قاعدة المنار الذهبية (نتعاون على ما نشترك فيه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه) فنحن مشتركون في أرض هذا الوطن وفي جميع مصالحه الاقتصادية والسياسية ومشتركون في اللغة نتعاون على ترقية ذلك بجميع فروعه ولسنا مختلفين الا في الدين ومذاهبه فيعذر كل منا الآخر فيه وليعلم الافراد المارقون من الدين من الفريقين انه ليس في استطاعتهم هدم الدين وهذه البلاد وما يجاورها هي مهده ومنبت الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام — أولئك العظام الذين يقدس ذكرهم مئات الملايين في الشرق والغرب ولا يعدون احداً من الفلاسفة ولا من الملوك والفاتحين مساويا أو مدانيا لاحد منهم بل ولا لأصحابهم وتلاميذهم الاولين، ولا لأوليائهم المخلصين. فهذا قامت الحجة لنا عليهم والمخلص في الدعوة الى المصلحة العامة لاتدحض له حجة لان الله تعالى هو المؤيد له (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين)

سورية عربية (١)

أولا وآخرا

للعالم الكاتب السياسي الكبير الامير شكيب ارسلان

« في البيان »

قبل ان انجلى الاتراك عن سورية كان جميع اهلها عربا ولم نكن نسمع فيها بسرياني وعبراني الا من قبيل العاديات (الآثار العتيقة) . وكثيرا ممن برزوا لنا الآن بالملة السريانية كانوا من صميم القحطانيين يومئذ ، وذلك لان مقصد مثل هؤلاء كان اخراج الترك حتى يحل محلهم احدى الدول الاجنبية . فلما خرج الترك وجاءت محلهم دولة عربية تريد تحرير البلاد باسم العرب وتنفي كل من يريد ان ينفي البلاد من غير العرب جدت عند بعض هذه الفئة القليلة من اهل سورية نغمة لم تكن معهودة من قبل وهي اننا نحن سريانيون غير عرب وان لغتنا هي السريانية وانما غلب علينا اللسان العربي منذ قرون ولكن بقيت لنا فيه لهجة خاصة تشعر بكوننا سريانا . ويا ليتهم قصروا دعواهم على هذا القول فكنا نوافقهم على كون هذه الفئة القليلة هي سريان ولكن طمحوا الى دعوى أعرض من ذلك وهي ان سورية كلها سريانية وانما بدخول العرب الفاتحين تعلم اهلها اللسان العربي وهذا غاية ما في الامر

تكررت اقاويلهم هذه سواء في جرائد عربية اللغة او اجنبية اللغة والعرب قلما يحفلون بها لخروجها من التاريخ وامعانها في التحكم و كونها غلطاً او مغالطة فاوهم ذلك بعض اخواننا من ابناء البلاد انهم على حق فيما يدعون فيه

ومن هذا القبيل رسالة طالعناها آخراً تحت عنوان « الحقيقة ضالتنا المنشودة » حاول فيها الكاتب ان يثبت كون سورية سريانية لا عربية وانه لا ينبغي ان يثقل هذا القول على العرب اذ ليس فيه مساس بكرامتهم و كما لا يغض العرب ان تقول : ان الرنسيس ليسوا عرباً . الانكليز ليسوا عرباً . الايطاليون ليسوا عرباً . فكذلك قولنا ان السوريين ليسوا عرباً وانما هم سريان . توفرت على ذلك الادلة التاريخية والاركيولوجية والاثنولوجية الخ والاعتراف بالحق أولى . الى غير هذا من الاقاويل التي كنا نحب ان نطوي عنها كشحاً كما طوى

(١) نقلا عن عددي جريدة الافكار البرازيلية المؤرخين ٦ و ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢١

هو من مناظر حدث عنها . الا انه لما كان جاء من باب التاريخ والحقائق العلمية وكان من الفضلاء المستقرين الخبر والاثر، المغرمين بالسير والنظر- كما يظهر من كتاباته ـ أحببنا ان نخوض معه عباب هذا البحث متوخين فيه الوجهة العلمية الصرفة معتمدين على التاريخ — لكن التاريخ المحقق الممحص لا المخيل ولا المخمن — لان الحقائق لا تكون بالظنون بل بالادلة وبعد ذلك نترك للقارئ المنصف ناشد الضالة التي أشار اليها الكاتب في رأس رسالته الحكم على نسب الاكثرية من أهل سورية أهو عربي أم سرياني

نقول : أولا ـ ان العرب والسريان (والعبرانيين) هم جميعا من الشعوب السامية لانه قد اتفق المؤرخون الاثبات على كون الساميين قسمين (أحدهما) الساميون الشرقيون وهم البابليون والاشوريون ، وبعد ذلك . فالساميون الكنعانيون وهم الذين كانوا في فلسطين قبل اليهود والكنعانيون سكان سواحل سورية أي الفينيقيون واليهود والاراميون والسريانيون وآراميو فلسطين الذين نطق بلغتهم السيد المسيح عليه السلام والتدمريون والنبط

ثانيا ـ الساميون الجنوبيون وهم العرب وهؤلاء قسمان الشماليون وهم عدنان ، والجنوبيون وهم قحطان والعرب البائدة وعرب المهر واهل جزيرة سوقطرة وينضاف اليهم الساميون الافريقيون وهم الحبشة وهؤلاء ثلاثة اقسام وهم اليتغري والتارينة والامارينة ، وكذلك من الساميين أقباط مصر وهم والصوماليون والجبرت من جنس واحد

فالسريانيون اذاً هم والعرب من فروع شجرة واحدة متدانية الاغصان يدل على ذلك تقارب مابين لغتي الفريقين حتى لقد يفهم العربي بعض السرياني بدون تعلم بل بمجرد السماع لشدة ما بين اللغتين من الشبه ولقد اعترف بذلك الكاتب صاحب تلك المقالة ولكنه تجنب في الموضوع ذكر سبب هذه المشابهة وهو اتحاد الاصل ووشيجة الرحم بين العرب والسريان . فنسبة السريان الى العرب ليست أبدا من قبيل نسبة الفرنسيس ولا الانكليز ولا شعب من الشعوب الاوروبية الى العرب ، بل هي نسبة ابناء عموم السلالة بحيث ان الفرق بينهم هو كالفرق بين الفرنسوي والايطالي أو الاسبانيولي ممن تجمعهم اللاتينية أو هو أقل من ذلك

ثالثاً ـ ان اكثر المستشرقين الاوروبيين لا يرون في اكثر الامم السامية

الا بطونا من العرب . وان السريانيين هم في الحقيقة الاراميون وان الاراميين كان فيهم عرب كثير لانه ليس المقصود بالاراميين شعباً ذا عرق واحد بل معنى كلمة الاراميين سكان البلاد العالية كما ان معنى كلمة الكنعانيين سكان السهول . كما انه في أواسط آسيا يوجد الايرانيون والطورانيون وقديتوهمونهم شعبين منفصلين نسبا والحال ان معنى الايرانيين سكان الحواضر ومعنى الطورانيين سكان البوادي . ولقد ثبت كون العرب سكنوا سورية من على عنق الدهر راحلين اليها من الجنوب فدخل منهم من سكان السهول في الكنعانيين واندمج من سكان الجبال في الاراميين وهؤلاء الاراميون لم يتسموا سريانا الا فيما بعد سماهم بذلك اليونان وادعاء الكاتب ان السريانيين السوريين هم السريان اهل بابل وأشور - ولهذا هو يفتخر بمدنيتهم - هذا فيه مافيه فان المؤرخين لا يخلطون بين السريان والاشوريين كما خلط حضرته جهلا أو تجاهلا لغرض في النفس

رابعاً - ذهب الاستاذ « سبرنغر » الالماني في كتابه « حياة وتعاليم محمد» صلعم وكتابه الآخر الشهير « جغرافية بلاد العرب القديمة » الى ان جزيرة العرب هي مهد جميع الساميين . وممن ذهب الى ذلك من فحول العلماء الاستاذ سايس الانكليزي في كتابه « أجرومية اللغة الاشورية » ومثله الاستاذ شرودر الالماني أعلن هذا الرأي في مجلة الشرق الالمانية . ومثله الاستاذ رايت في كتابه « اجرومية الالسن السامية » وهو المدرس بكلية كبردج . ثم العلامة ماكس مولر قال هذا القول نفسه وغير هؤلاء من العلماء المحققين ذهبوا الى ان جزيرة العرب هي مهد الامم السامية باسرها فيكون السوريون بحكم الضرورة عرباً في الاصل كما لا يخفى . وذهب آخرون الى ان اصل الاقوام السامية هو من افريقية هاجروا الى جزيرة العرب وفيها نشأوا ونموا وتفرعت مميزاتهم ومنها خرجوا الى سائر الاقطار . ومن اصحاب هذا القول روبرت سميث الانكليزي وبارتون الامريكاني وغيرهما وعلى كلا المذهبين يكون مرجع السوريين الى العربية

خامساً - في عهد العائلة المصرية السادسة أنفذ قائد فرسان من مصر لارتياد اراضي سورية فلم يجد هناك سوى الكنعانيين ولم يقف يومئذ على أثر للفلسطينيين ولا للعبرانيين هذا في كتاب العلامة الهولندي تيل وان كثير

من المؤرخين الباحثين لا يرون في الكنعانيين الا بطنا من العرب . ثم ان المصريين الاقدمين حاربوا جيلا اسمهم الشاسو في جهات سيناء وجنوبي سورية وهذا الجيل كان عربياً

سادساً ـ الفينيقيون هم في سورية قبل العبريان وقبل الاراميين وقد ذكر هيرودتس ان قسما من الفينيقيين جاءوا الى جهة خليج فارس كما ان العلامة الانكليزي بينت اجرى حفريات كثيرة في جزيرة البحرين استنتج منها كون الفينيقيين هم من هناك وان قسما آخر من الفينيقيين جاءوا من سواحل البحر الاحمر ، وعلى كلا الحالين فهم عرب من نفس جزيرة العرب . وبعد ان يثبت كون الفينيقيين عربا لا يبقى محل للنزاع في عروبية القسم الاعظم من أهل سورية ولا في الدرجة العليا التي يحلها العرب في تاريخ المدنية قبل الاسلام فضلا عما بعده

سابعا ـ الانباط هم عرب عاربون وقد كانت لهم في سورية دولة وسولة ومدنية ضخمة تدل عليها آثارهم واحجارهم وكانت لهم جرش وصرخد وتدمر ووادي موسى (بترا) وان لم يكن من صنعهم سوى وادي موسى (ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين) لكفى فكيف وهناك جرش وما فيها وتدمر التي كانت عروس المشرق ، ومن الانباط الحوريون الذين يقال لهم العمالقة كانوا جنوبي نهر الاردن

ثامنا ـ عند مجيء ابراهيم الخليل الى سورية كان في هذه البلاد عنصران أحدهما الحثيث في الشمال والثاني العرب الكنعانيون والعموريون الكنعانيون في الجنوب وقد وجد ابراهيم ملكيصادق الملك الموحد الذي كان نظير ابراهيم يعبد العلي الاعلى وأدى اليه ابراهيم العشر وان العلامة هيرخت مؤلف كتاب « الحفريات الاثرية في القرن التاسع عشر » يذهب الى ان ملكيصادق كان عربيا . فلينظر الانسان في أي دور كان العرب ملوكا ودولات في سورية

تاسعا ـ اتفق المؤرخون على كون أساس المدنيات القدمى هو الديانة والتجارة وكل الآثار تنبئ عن ان أكثر مراسم الديانة في سورية آتية من جنوبي جزيرة العرب . وأهم مراسم اليهودية مأخوذة من ديانة مدين وهي عربية بحتة والمينيون سكان سيناء كانوا عربا من اليمن ايضا

هذا ومن اطلع على كتب ولهاوزن الالماني وروبرت سميث الانكليزي

المؤرخين البحاثين في الامور الدينية ير ان أكثر هذه المسماة بالطقوس آتية من جزيرة العرب كما ان المؤرخ الاميركاني هارون بوورتون ذهب الى ان كل الاديان السامية هي من العرب . أما التجارة فمن المقرر ان أكثرها كان مع اليمن وانها كانت سبب سعادة سورية حتى ان ثروة سليمان بن داود الشهيرة كان معظمها من الاتجار مع اليمن ولا يخفى انه باستمرار القوافل بين اليمن وسورية كثر طراء العرب على الديار السورية وأوطنوها وتمكنوا وتشعبوا فيها

عاشرا ـ وجد الضجاعمة من عرب اليمن في حوران وجنوبي سورية قبل الاسلام باحقاب متطاولة . وفي زمن النبي ايليا أي قبل المسيح بنحو ستمائة سنة جاء القائد نعمان العربي من الشام يستشفي من البرص عند اليشع تلميذ ايليا. ثم كان بنو سليح وكانوا يحكمون حتى أبواب مدينة دمشق أما الغساسنة وهم من الازد من عرب اليمن أيضا فقد كانوا في فلسطين والشام وتدمر وكانت لهم القوة والصولة وبقيت عنهم الآثار الباهرة واستمر ملكهم نحو ستمائة سنة ـ فيما أتذكر ـ الى ان ظهر الاسلام . فأنت ترى تعاقب الدول العربية على سورية من ايام الكنعانيين وملكيصادق الى الانباط والعمالقة والفينيقيين الى الضجاعمة الى الغساسنة وكل من هذه الامم انبسطت وامتدت وتركت ملايين من الذراري في ارض سورية

حادي عشر ـ كان الغالب على سورية العنصر الوارد اليها من الجزيرة العربية قبل الاسلام فكيف من بعده . وقد جاء العرب المسلمون وفتحوا البلاد واندفق سيل المهاجرة من كل حدب واستمر ثلاثة عشر قرنا الى اليوم . ومما قرره علماء التاريخ ان الحواضر السورية تكسب كثيرا من البوادي حتى ان بعضها قد ينقرض لولا طراء البادية . وليس ورود العرب على سورية وايطانهم سورية هما من قبيل الحدس والتخمين وان ذلك عقلا لابد ان يكون هكذا بل مئات الوف من أهل سورية الآن يحفظون أنسابهم ويعرفون انفسهم انهم عرب ومنهم من عنده كتابات خطية تثبت دعواه ومنهم من يعتمد على التواتر ومنهم من انقطعت به أسباب العلم عن معرفة أصله ولكنك تعرفه عربيا من سحنته

ثاني عشر ـ اما كون أهل سورية أسلموا لدن الفتح العربي فنريد عليه دليلا واحداً نريد تاريخا أو نصاً مبينا او قرينة قاطعة . لا يكفي في ذلك مجرد الظن لان الظن لا يغني من الحق شيئا . نعم اننا لا نستبعد ان يكون كثير من

الافراد عند الفتح وبعد الفتح على توالي القرون دخلوا في الاسلام ولكن لايؤدي دخول هؤلاء الى كون السواد الاعظم من أهل سورية كانوا يوم الفتح الاسلامي نصارى أو يهوداً وأسلموا . كما ان وجود العرب نحو مائة سنة في جنوب فرنسا وتنصر من بقي منهم هناك بعد جلاء الحكومة العربية عن تلك البقاع ، لايفيد كون معظم أهل جنوبي فرنسا أصلهم من المسلمين بل يقال ان كثيرا من العائلات في هاتيك الديار ترجع الى العرب . كذلك تنصر عشرات الوف من عرب الاندلس وربما مئات الوف عند ماحملهم فرديناند وايزابلا ثم ديوان التفتيش الشهير بعدهما ثم فيليب الثاني على اعتناق النصرانية بالسيف والنار وربما خيروهم بين التنصر والجلاء فالذي عز عليه دينه جلا والذي عز عليه ملكه ووطنه تنصر ورغم هذا فلا يستطيع مؤرخ ان يقول ان أكثر سكان اسبانيا اصلهم عرب. فهذه الرواية التي معناها ان أكثر أهل سورية اسلموا عند الفتح العربي لاصحة لها . والصحيح ان الامة الفاتحة غلبت ونمت كما هو شأن جميع الامم الغالبة وان الامم المغلوبة ضعفت وتناقصت كما هو شأن جميع الامم المغلوبة على امرها ودخل في سورية أقوام كثيرة من المسلمين غير العرب فاستعربوا وصاروا عربا منهم الاتراك ومنهم من المغول ومنهم من الاكراد ومنهم من الشركس ومنهم مغاربة دخلوا في أيام الفاطميين وغير ذلك فزاد عدد المسلمين في سورية كثيراً على عدد سائر الملل بهذه الاسباب العديدة

ثالث عشر — ينبغي لمثل هؤلاء الذين يرمون الكلام على عواهنه ويقولون ان السوريين هم سريان ان يراجعوا التواريخ العربية ما كان منها على منازل الاعراب ودخولهم في الحواضر كالقلقشندي والمقريزي وعلى تواريخ الحروب الصليبية التي حررها مؤلفو العرب وعلى كتب التراجم وأنساب بعض العائلات والعشائر وعلى أخبار القيسية واليمنية وعلى الجغرافيات العربية القديمة بحيث يتكون عندهم التصور اللازم لمعرفة الحقيقة . بل لايكفي هذا وحده حتى يقترن بالتنقيب بين سكان البلاد وسؤال قبيلة قبيلة وقرية قرية عما يعلمون من أصولهم وبعد ذلك يظهر انه ليس الجهل الذي فشا والعلم الذي طمس هما اللذان جعلا أهل سورية يقولون « نحن عرب » بل الجهل بتاريخ العرب وبأنسابهم والاقتصار على رواية واحدة هما اللذان أديا الى القول الجديد « ان السوريين سريان» : ان العرب هي الامة الوحيدة التي يستوي عاميها وخاصيها

في معرفة نسبه ولم يبلغ انحطاط العلم في سورية ولامرية ان جهل العرب فيها أصولهم وما على المرتاب الا ان يجول بنفسه في البلاد ويستقصي من أهلها عن أصلهم ليلمس الحقيقة لمساً

رابع عشر ـ ان كثيرا من نصارى سورية هم من أصل عربي غساسنة وغيرهم. منهم من بقي بحوران ومنهم من جلا الى دمشق وحاصبيا وبعلبك وزحلة وجبل لبنان . ولا يلزمني الآن أن اتعرض لاسماء هذه البلدان التي تعرف أنفسها. ولعلنا نذكر ذلك مرة أخرى . وان طائفة الدروز هم من قبائل لخم وجذام وبطون أخرى جاءت آباؤهم أيام الفتح الى معرة النعمان ثم أسكنهم الخلفاء العباسيون جنوبي لبنان وان أكثر طائفة الشيعة هم من عاملة من عرب اليمن جاءوا الى الشام ونزلوا جبلا سمي بهم وهو جبل عاملة أو بلاد بشارة ولست ادعي انني على شيء من الاحاطة بأنساب عرب سورية فان ذلك بحر زاخر لاساحل له لكن المعروف منه عندنا هو مما تضيق عنه هذه العجالة. وبالاختصار فالسواد الاعظم من مسلمي سورية وطوائف سورية المتشعبة من الاسلام هم عرب ثم مستعربون من أمم غير سامية . وان قسما عظيماً من نصارى سورية هم عرب صراح لاجدال فيهم وان بيز الطائفة المارونية ذاتها التي تنتسب الى السريانية بطوناً كثيرة عربية جلت الى لبنان من حوران باعتراف المؤرخين اللبنانيين من أهل التحقيق ،وسواء اراد بعض السريان أن يفصلوا أنفسهم عن العرب بعد أن استعربوا منذ دهور أو لم يريدوا فان الاكثرية الساحقة في سورية هي للعرب الحقيقيين . انتهى

شكيب ارسلان

حاشية للمصحح:هل كان التغلبيون الذين حاربوا مع عبد الملك ضدخلافة عبد الله بن الزبير مسلمين ؟ هل كانت جيوش العرب المنتصرة التي حاربت مع العرب في العراق ضد العجم مسلمة ؟ هل ينكر ان بني الخازن وبني حبيش وآل شهاب وآل ابي اللمع من نصارى لبنان — وهم من علية طوائف لبنان — غير نصارى ، ولا عبرة بان هذه الطوائف ارتدت ولكن : هل هي عربية أم أعجمية ؟ و كتبه صالح مخلص رضا

ترجمة فقيد العلم والاصلاح

أحمد فوزي عمران

بقلم شقيقه محمد بسيوني عمران في (جاوه)

حضرة العلامة المفضال ، ذي الفضل والكمال ، سيدي الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر متعني الله والمسلمين بوجوده الشريف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فاني أكتب اليكم اليوم ويدي مضطربة وقلبي مملوء حزنا وأسى والهموم مسدلة على القلوب لما رزئنا بل رزئت به سمبس كلها من فقد شقيقنا العزيز أحمد فوزي عمران ليلة الخميس الواقعة في ٢٧ شعبان المعظم سنة ١٣٣٩ الموافقة ٥ مايو سنة ١٩٢١

ألا ان مصيبتنا في فقيدنا المرحوم كبيرة [illegible] رجاؤنا فيه لاصلاح الامة كبيراً . لما رزقه الله تعالى من الاخلاق القويمة والصفات الكريمة ، فكان رحمه الله مخلصا قوي الايمان ، قائما بالواجبات [illegible] من الفواحش والمنكرات صادقا في الجد والهزل ، عالي الهمة ، قوي [illegible] ساعيا في مصلحة الامة ، محبا للعمل ، متواضعا ناصحا أمينا ، صابرا [illegible] ، عزيز النفس ، مكرما محبوبا من أقاربه وأصحابه وقومه وجميع من عاشره من مختلفي الاجناس

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يحقق رجائي ورجاء الامة فيه فلله ما أعطى ولله ما أخذ ، انا لله وانا اليه راجعون ، ألا الى الله تصير الامور

ولد رحمه الله تعالى يوم السبت غرة شعبان المعظم سنة ١٣٠٦ ولما بلغ ست سنوات من عمره علمه والدنا الشيخ محمد عمران مهراج امام قاضي سمبس قراءة القرآن الشريف ثم أدخله في مدرسة الحكومة الهولاندية ليتعلم فيها الكتابة الملاوية ومبادئ الحساب وأنا يومئذ في مكة المكرمة أطلب العلم فيها ففاق رحمه الله في المدرسة أقرانه وتقدم عليهم ، ولما أتم دروسه فيها لم يلبث أن طلبته الحكومة معلما في هذه المدرسة . وفي سنة ١٣٢٨ قويت رغبته في تعلم اللغة العربية والعلوم الدينية وكنت أنا منذ سنتين ونصف جئت من سفري من مكة المكرمة فقلت له : ان أدرت أن تتعلم اللغة العربية وعلومها

والعلوم الدينية والدنيوية (العصرية) فاذهب الى مصر وأنا أذهب معك فاتفق رأينا وطلبنا من الوالد رحمه الله الاذن بالسفر الى مصر وأما لاجل طلب العلم فيها فلم يستطع مخالفتنا في ذلك ، وأخبر الوالد رحمه الله مولانا السلطان محمد صفي الدين بمرادنا فسره ذلك الخبر وقال له : انا نرجو ان يكون ولداك نبراسا لبلادنا .

وفي شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٣٢٨ سافرت أنا والفقيد رحمه الله وأحمد سعود وسعد علي من أهل بلدنا الى مصر القاهرة ذاكرين اسم الله وناوين طلب العلم فيها وفي يوم ١٣ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٢٨ وصلنا الى مصر القاهرة ونزلنا في بيت مصلح الامة العالم العلامة مولانا السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار فاننا لم نكن نعرف غيره من الناس في مصر ولا محل لرجائنا في تحقيق أملنا وأملنا لتحصيل ما سافرنا وهاجرنا اليه غير هذا المصلح العظيم ، وما كنت أعرفه ولا أرجو فيه مارجوناه الا بعد قراءتي المنار فاني اشتركت فيه منذ سنتين قبل سفرنا الى مصر ، وقد قابلنا في محطة مصر شقيقه الفاضل السيد صالح رضا وكان السيد صاحب المنار ينتظرنا في منزله الشريف ولما دخلنا وسلمنا عليه قابلنا بحفاوة واكرام على عظم قدره وعلو مقامه ، وأكرم مثوانا وضيافتنا ولم ننتقل من بيته الا بعد أيام — جزاه الله عنا خير الجزاء — وكان أول ماسألني عن أحوال مسلمي جاوه وملايو فأخبرته بما علمت وظهر لي انه متأسف من انحطاطنا في الامور الدينية والدنيوية وانه مهتم بأمورنا الدينية بل والدنيوية . ولم يكن أحد منا يعرف اللغة العربية سوى كاتب هذه الاسطر

وكنا نود لو نقرأ على السيد ونتعلم منه العلوم العربية والدينية وغيرها من العلوم العصرية ولكن لم يجد وقتا لذلك لكثرة أشغاله واشتغاله بما هو أكبر من أقرائنا وتعليمنا من الاصلاح الديني والدنيوي العام ومع ذلك لم تفتنا ارشاداته وافاداته وذلك قبل تأسيس مدرسة دار الدعوة والارشاد ، وأما بعد تأسيسها وفتحها فقد كنت أنا والفقيد رحمه الله نحضر دروس التفسير والتوحيد التي ألقاها السيد في المدرسة ولم نحرم ولله الحمد ما كنا نوده ونتمناه وكنت أنا والفقيد رحمه الله نتعلم في الازهر الشريف ويأخذ كل منا معلما خصوصيا بأجرة وبغير أجرة .

وكان رحمه الله يقرأ النحو والصرف والفقه ويشتغل بحفظ اللغة العربية، ولم يمكث سنة واحدة بمصر الا وهو يعرف النحو والصرف وينشئ باللغة

العربية ثم أسست مدرسة دار الدعوة والارشاد بالروضة بجهة مصر القديمة وكان ناظرها ومديرها العلامة صاحب المنار ودخلت أنا والفقيد رحمه الله تعالى في هذه المدرسة المباركة بعد امتحاننا فيما اشترطته في طلابها من العلوم التي تعلموها

وكان الفقيد رحمه الله تعالى يجاري طلبة المدرسة المصريين الذين طلبوا العلم في الازهر نحو ثماني سنين في العلوم التي تعلم فيها غير أنه رحمه الله لم ينطلق لسانه بالتكلم باللغة العربية انطلاق ألسنة المصريين . وفي سنة ١٣٣١ سافرت الى وطننا سيبس والفقيد لم يزل يطلب العلم في المدرسة ، ويشتغل بالمطالعات والمذاكرات والمكاتبات ، ثم خرج من المدرسة واتخذ معلمين خصوصيين لم يفارقهما حتى سافر الى سيبس أوائل سنة ١٣٣٥ ، وكان قصده التوجه أولا الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج ثم الى وطنه ولكن لم يحصل على اذن الحكومة المصرية في السفر الى الحجاز (كانت الايام أيام الحرب الاوربية الهائلة التي كانت الانكليز تخاف فيها السياسة) وكان رحمه الله متهما بالاشتغال بالسياسة لما وجدته الحكومة المصرية من بعض كتبه التي الذي فيه ذكر أخبار الحرب، وكان لا يكتب الي الا باللغة العربية.

ولما وصل الفقيد رحمه الله تعالى الى سيبس أحبه مولانا السلطان وازداد رغبة في إنشاء مدرسة تعلم فيها اللغة العربية وعلومها والعلوم الدينية والدنيوية كالجغرافية والحساب ، وأمر الفقيد بتأليف نظام للمدرسة المرغوب وجودها في سيبس فألف رحمه الله نظاما بموجب الامر السلطاني مقتبسا من نظام مدرسة دار الدعوة والارشاد

وفي شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٣٣٦ تأسست في سيبس والحمد لله مدرسة عربية دينية تسمى « المدرسة السلطانية » وكان ناظرها ومديرها وأكبر أساتذتها فقيدنا المرحوم المأسوف عليه فكان الاقبال على هذه المدرسة أطال الله عمرها عظيما من أهل البلد فأدخلوا فيها أبناءهم وبناتهم حتى خرج كثير من طلبة مدرستي الحكومة وانتظموا في سلك تلاميذها ، ومن يوم تأسست المدرسة وفتحت كان وما زال رحمه الله يشتغل بالتعليم فيها الى ١٠ رجب الفرد سنة ١٣٣٨ الموافق ١ مارث سنة ١٩٢٠ فانه رحمه الله إستأذن مولانا السلطان في السفر الى الحجاز لاداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة

وفي ٢٣ رجب سنة ١٣٣٨ الموافق ١٣ ابريل سنة ١٩٢٠ سافر رحمه الله الى سنغافوره فالى مكة المكرمة، وقبل أداء فريضة الحج حصل له فيهما نزيف شديد من فمه فذهب مسرعا الى طبيب الحكومة الحجازية وفحصه ثم فحصه وعالجه طبيب جاوي أرسلته الحكومة الهولاندية الى مكة وقال له : ان هذا الداء هو السل وانك لا بد ان تسافر سريعاً الى جاوة — وبعد أن أدى رحمه الله فريضة الحج سافر الى سمبس ولم يمكنه السفر الى المدينة المنورة طبعاً .

وفي يوم الاثنين الواقع في ٥ صفر ١٣٣٩ وصل رحمه الله الى وطنه وهو لم يزل مريضاً نحيفا وبعد اسبوع ذهب الى سنكاوخ (احدى قرى سمبس) لاجل التداوي عند طبيب الحكومة الهولاندية فقال له الطبيب الهولاندي انك لابد ان تعالج في بتاوي فاني لايمكنني ان اعالجك هنا وفي ٣٠ صفر ١٣٣٩ سافر الى بتاوي ودخل الى أحد المستشفيات هنالك ثم نقل الى مستشفى في بوقر وكان لا ينقل الى هذا المستشفى الا من تقدمت صحته ، وفي ٨ رجب ١٣٣٩ وصل رحمه الله تعالى راجعا من بتاوي الى سمبس فسررنا سرورا عظيما لانا ظننا انه قد شفي شفاء تاما اذ لم نر فيه الا سعالا قليلا ، وفي يوم ١٦ شعبان سنة ١٣٣٩ عاوده نزيف الدم وازداد مرضا ، وفي ليلة الخميس عند الساعة الثانية ونصف عربية الواقعة في ٢٧ شعبان سنة ١٣٣٩ خرجت روحه الطاهرة بعد ان نطق بالشهادتين فحصلت الضجة والجزع والحزن من أقاربه خاصة ومن الناس عامة فلا حول ولا قوة الا بالله العظيم

كان رحمه الله تعالى أديبا ، وخطيبا وسطا ، وشاعرا قليلا ، وكان له في العلوم العربية نصيب وكذا في العلوم الرياضية والعصرية والدينية ، ويدل على ذلك مقالاته التي كتبها باللغة العربية والملاوية، وكان محررا بجريدة الاتحاد الملاوية التي كانت تصدر بمصر القاهرة ، وكان رحمه الله يقرأ المنار من يوم عرف العربية وكان آخر قراءته له الجزء الثاني من المجلد الثاني والعشرين وله مقالة نشرها المنار أيام كان بمصر .ومن أثر اجتهاده وحسن طريقته في التعليم أن تعلم وفهم في مدة سنتين عدة أشخاص من تلامذته اللغة العربية والنحو والصرف فيما مكنهم من قراءة وفهم الكتب العربية السهلة العبارة ومن الكتابة باللغة العربية على انهم لم يكونوا يعرفون شيئا ما من اللغة العربية قبل دخولهم المدرسة — ولذلك لما وصل الفقيد رحمه الله من سفره نعى كل

من تلاميذ المدرسة ذكورا وأناثا ان يعود اليها مملا ولكن : ماكل مايتمنى المرء يدركه ، وان ارادة الله فوق كل ارادة وقدرته تعالى نافذة وليس لنا الا الرضاء والتسليم لحكمه وقضائه .

وقد قال كثير من الناس بعد وفاة المرحوم : ان المدرسة تموت قريبا فانه ليس فيها معلمون أكفاء ، والسبب الاول في موتها عدم الاموال التي تحيا بها والمعلمون بخلاء ضعفاء في الاحوال المالية .

هذا واني ذكرت ماذكرت من الاطراء والثناء على شقيقي رحمه الله وهو حق ان شاء الله تعالى ، ولا فائدة لي وله في ذلك مالم يستحقه . ويشهد له بذلك جميع من عرفه من أهل العلم والفضل الذين يقدرون الفضيلة حق قدرها كما تشهد له به آثاره التي لا موضع لذكرها هنا .

سمبس برنيو الغربية تحريرا في ٩ شوال سنة ١٣٣٩ الموافق ١٦ يوني ١٩٢١

كتبه

محمد بسيوني عمران

تقريظ المطبوعات (١)

(كتاب تنوير البصائر ، بسيرة الشيخ طاهر)

صفحات هذا الكتاب ١٥٩ بقطع رسالة التوحيد ومواضيعه ٥٣ وقد طبع بدمشق الشام بمطبعة الحكومة العربية السورية (السابقة) سنة ١٣٣٩ على ورق جيد . ويطلب من مؤلفه الشيخ محمد سعيد الباني بدمشق الشام

(شيء من مواضيع الكتاب)

المقدمة من المؤلفين والكتاب من يفترص لما يريد اذاعته فرصة سانحة فيبدي فيها بعض ما يريد نشره ومؤلف هذا الكتاب الشيخ محمد سعيد منهم لانك اذا قرأت الكتاب وأردت أن تأخذ منه سيرة الفقيد مجردة — كما يحب المؤلف — لا تكاد تثبت منه الربع وأما الثلاثة الارباع الباقية فهي مواضيع

(١) كتب تقريظ هذا الكتاب وترجمة الشيخ طاهر شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

وآراء في الاصلاح والتراجم والنقد ، فهذه المقدمة وهي من ص ٥ ـ ١٤ ليس فيها شيء من سيرة المترجم له بل هي مقالة في الدين ولزومه والبدع والمبتدعة الخ

أعماله وآثاره . ذكر في هذا الموضوع ما كان من أعمال الفقيد من الاجتهاد في اصلاح الكتاتيب والمدارس الرشدية وبعض مؤلفاته وما عدا ذلك فهو في انتقاد العلم وكتبه الخ

استثارته دفائن اللغة العربية . هذا الموضوع في أربع صفحات لم يكن فيها شيء عن الفقيد يزيد على نصف صفحة على انه لم يذكر فيه شيئا من تلك الدفائن ولا ما استثاره منها وبعثه من مرقده ، فهل كان كتاب المخصص من جملة ما أحياه ؟

عنايته باحياء التاريخ . هذه النبذة أستغرقت من الكتاب مايقرب من أربع صفحات لم يكن فيها شيء عن الفقيد سوى ما ملخصه « عني فقيدنا باحياء التاريخ وارشاد المسترشدين وغيرهم الى مزاولته ودرساته وانعام النظر به وبفلسفته والدلالة على كتبه المفيدة والسعي وراء نشرها وطبعها » وما عدا ذلك فكلام في علم التاريخ وفوائده ولم يذكر ما أحياه من التاريخ ولا ما نشره منه

سعيه وراء التوفيق بين الدين والعلم والعمران . هذا الموضوع استغرق ما يزيد على ١٦ صفحة ليس فيها عن الفقيد سوى ما يقل عن صفحتين نسب فيه للفقيد ما لم يعرف عنه وما لم يدعه هو لنفسه (انظر ص ٤٩) والا فليقل لنا المؤلف أين مناظرات الفقيد أو كتاباته في الاجتماع والعمران ومحاجته المحافظين على القديم؟ وارشاد الطالبين وتعليم الجاهلين

وكيف كان داعية اصلاح والمؤلف نفسه يقول ما ملخصه «ولما رأى جدب الزمان من حكماء الاخلاق وساسة الارشاد ، وان معالم الاخلاق طمست ودراستها قد درست، وان وظيفته وهي الدعاية الى الاصلاح العام (؟) لم تمكنه من التفرغ لارشاد السالكين وعظة الغافلين وتربية الاحداث الخ » انظر ص ٢٩

دعوته الى الاخلاق والتربية . هذا الموضوع أخذ ١١ صفحة كان في الفقيد منها ٣ صفحات نسب فيها المؤلف ما ليس فيه وذكر صحبته وحبه للمستشرقين وحبهم اياه والمزاورة بينه وبينهم وسرد أسماءهم

فأنت ترى ان الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات جعل في كل واحدة منها كلمات في المترجم له رحمة الله تعالى وهذه براعة من المؤلف أشكره على التفطن لها

ولكنني آخذ عليه — عملا بقوله قبيل الخاتمة ص ١٤٢ « ومن وجد غلطا في بعض ما عزوته للفقيد ..... فليتفضل علي بتصحيح غلطي » الخ وبعد الاطلاع على « المدخل » و « المقدمة » — ما يأتي فأقول :

أولا ـ ان الكتاب بمجموعه لا يصدق عليه اسمه ويصعب جدا أخذ تاريخ حياة الشيخ طاهر منه ، وأن أخذ ما أورده المؤلف من هـذه الترجمة لتشتتها بين أطوائه وفي ثناياه على انها لا تكون صورة صحيحة للفقيد

ثانيا ـ نسب المؤلف للشيخ تلاميـذ ومريدين ولم يدلنا على أحد منهم والظاهر لنا انه رحمه الله لم يكن ذا قدرة على التعليم فاننا نعلم انه أقام شهورا عدة نزيلا عند بعض السوريين في السويس وأراد أن يعلم أحد أولادهم النحو وقد رأينا وعاشرنا هـذا التلميذ وهو لا يعرف الفاعل من المفعول . فأين هم تلاميذ الشيخ طاهر رحمه الله وأين أمكنة دراسته وتدريسه ؟

ثالثا ـ لم يذكر المؤلف ما كان له من الآثار في الآثار (العاديات) غير انه « تعلم كثيرا من الخطوط الكوفي والمشجر والعبراني وغيرهم (؟) ليتسنى له دراسة الآثار الدارسة ونبشها من عالم الدثور الى عالم الظهور »

رابعا ـ لم يذكر ما كان من عمل الفقيد في التوفيق بين العلم والدين الخ غير انه كان من علماء كذا وكذا وما لم يدع الشيخ طاهر لنفسه شيئا منه في حياته وانه تبادل الآراء مع المستشرقين وانه كان بينه وبينهم صداقة الخ انظر ص ٤٩ و ٥٠

وكذلك قل عن بقية المباحث. ولو أردنا تتبع الكتاب من أوله الى آخره مازدنا القراء فائدة ولا المؤلف بصيرة وفيما أوردناه كفاية

واليك ترجمة الشيخ طاهر رحمه الله مختصرة مفيدة صحيحة كما وصفها أحد أفاضل علماء الشام ممن له معرفة تامة بالفقيد بعد ان قرأتها عليه اذ قال لي : انها صورة حقيقية مختصرة للشيخ طاهر فأقول : —

الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي

حياته وموته ونشأته العلمية

هو الشيخ طاهر بن الشيخ محمد صالح أحد مهاجرة الجزائريين ومفتي المالكية بدمشق الشام، ولد في دمشق سنة ١٢٦٨ ونشأ في حجر والده وتلقى مبادئ العلم عنه في بيته ، ثم اتصل بالشيخ عبد الغني الميداني فحضر عليه علوم العربية

والفقه الخ وهو استاذه الوحيد . وكان له شغف بالمطالعة والمراجعة حتى صار له مشاركة حسنة في جميع العلوم العربية وعني بقراءة الخطوط العربية وخاصة الكوفي منها وتلقى شيئا من اصطلاحات الهندسة والفلسفة عن بعض ضباط الجند العثماني حتى لم يعد غريبا عن الهندسة النظرية ، وكان ذا حافظة جيدة وذا كرة حسنة لا يغيب عن ذهنه ما قرأه في بعض الكتب من نكتة غريبة أو نادرة ومع هذا لم يكن يعتمد على ذاكرته بل كان يضع في كل موضع فيه مسألة يجب الرجوع اليها من الكتب علامة من قطع الورق حتى انه اذا قرأ كتابا ترى تتف الورق بارزة منه ، وكثيرا ما كان يكتب رقم الصفحة واسم الكتاب على قطع من ورق تكون في جيبه الذي هو سفطه (محفظته) وجرابه وكان حريصا على تلك النكت حتى انه كان يستطرد لوضعها في مؤلفاته ولو في غير موضعها وتوفي في دمشق يوم ١٤ من ربيع الآخر سنة ١٣٣٨ ودفن فيها رحمه الله تعالى

هيأته وزيه وعيشته وأخلاقه

كان رحمه الله قمحي اللون واسع العينين غائرهما نحيف الجسم أبيض اللحية رث البزة غير ممتن بنظافة ثيابه وكان لباسه ما تسميه أعراب الشام شبر ويسمى في مصر قفطانا وفي الشام قنبازاً أو غنبازا فوقه جبة أو جبتان ويتعمم بعمامة من الاغباني وكان كثيرا ما يلبس الثوب مرة واحدة فلا يخلعه حتى يبلى ولا يدع الشمسية (المظلة) صيفا ولا شتاء ويضع على عينيه مناظر لتقريب البعيد فاذا اراد القراءة في كتاب رفعها ، وكانت له جيوب في جبته كالخرج

وكان حديد المزاج ضيق العطن ضعيف المنة تغلب عليه الوحشة ولعله كان يحس من نفسه بذلك اذ كان يحاول أن يستر الاستياء بمزاح مع جلسائه ومباسطة . وكان كثير الحديث عن علماء دمشق وأعيانها والاسباب فيما كان عليه معاصروه فيها من الحب والختل والدهان وما كان يدسه هو من الدسائس ليخلص أو يخلص شخصا أو ليروج مشروعا خيريا من شرهم ، ولولا انه كان يجاهر بذلك في أكثر مجالسه ويفخر به ويعبر عنه بالدسائس الطاهرة لما استحسناذكره وقد علمنا علم اليقين ان من دسائسه ما كان للايقاع لا للانقاذ

وكانت عيشته عيشة الزهاد مع الحرص على الوقت وكان يقضي عامة ليله في المطالعة على ضوء مصباح من البترول ثم رأى ان ينتفع بنوره وحرارته معاً فكان يأتي بقدر صغيرة فيضع فيها شيئا يريد طبخه بحكم وضعها فوق المصباح

معلقة ويقدر لنضجه ساعات يتعاهده عند انتهائها، وكان أحيانا يطبخ القهوة في القدر ويشرب منها عدة أيام وربما تعفن وجهها من طول المكث.

وكان لاينام في الليل بل يأتي بيته بعد العشاء ويطالع في الكتب أو يكتب عامة ليله وينام بعد صلاة الصبح الى العصر وكان ولوعا بالدخان والشاي والقهوة جميعا مفرطا في كل منها ولم يكن حريصا على المال

كان خلقه التعفف والكرم مع الحاجة لايميل الى الطمع ولا الدناءة وقد اشتدت به الحاجة في آخر أيامه في مصر فباع معظم كتبه من احمد باشا تيمور وكانت نفقته من ثمنها، وكان يتصدق في كل يوم بملاليم (أعشار القرش) بعددها ذلك، وقلما يصدر عن مجلسه وارد بفائدة علمية لانه لم يكن يذكر بين الناس شيئا من وسائل العلم لامفيدا ولا مناظرا ولا مذكرا ولا سائلا ولا مجيبا واذا سأله مستفيد عن شيء أحاله على المراجعة وربما دله على المظنات ان كان يرى انه يستحق ذلك، وكان يرمي الى مقاصده من طرف خفي بدهاء

وربما أوعز الى بعض جلسائه ليوسط بالامر بيده وكان اذا استرسل بالمباسطة أفرط فيكثر من الحركات ويغرب بالضحك حتى يخرج عن وقار الشيوخ

وكان متصلبا في رأيه لايرجع عنه ولو الى الصواب، حكى لي شيخ عالم فاضل أطال عشرة الشيخ طاهر انهم اختلفوا في كلمة لغوية فكان الشيخ طاهر على رأي تبين بعد المراجعة انه كان مخطئا فيه ولم يرجع الى الصواب

مؤلفاته

ارشاد الالباء بمدخل الطلاب الى فن الحساب، قصص الانبياء، الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام، مد الراحة الى علم المساحة، الجواهر الكلامية في العقيدة الاسلامية، الجوهرة الوسطى، رسالة في العروض، وقد أراد ان يجعل هذه الكتب مدرسية وكلها طبعت في سورية ومنها ما أعيد طبعه مرات وله مؤلفات أخرى وهي كتاب التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الاتقان، طبعه بمطبعة المنار ووقفت على طبعه وعنيت بتصحيحه بأذنه، وكتاب توجيه النظر في الاصول طبعه له الخانجي بمصر وكتاب التعريب الى اصول التقريب، طبع بمطبعة النهضة بمصر وشرح خطب ابن نباتة وامنية الالمعي، وكتاب في التعليم الابتدائي وتفسير القرآن الحكيم، ولعل هذه الاربعة الاخيرة لم تطبع اذ لم نرها وكان هو

المحرر للمجلة السلفية التي صدرت في آخر أيام حياته بمصر وكان يودعها نبذاً من مقتطفاته العلمية ومن كناشته (مفكراته) وكانت تلك المجلة تنوه بكناشته وقد وعدت بطبعها فيما أتذكر ، وله كتاب « تقويم المجلة السلفية » وإن لم يعنون باسمه

علمه وعمله

لم يشتهر التقيد ويعرف بعلم من العلوم ولا تصدى لتدريس شيء منها فلم يعلم له تلميذ مالم أخذ عنه العلم غاية ماعرف به انه كان ذا اطلاع على اسماء كثير من الكتب حتى قال بعضهم انه نسخة من كتاب كشف الظنون او الفهرست وانه وان لم يحص ماأحصى كتاب من هذين ولكنه كان يعرف مواضع كثير من الكتب وفيها كثير مما يجب نشره ويجب طبعه ولكنه كان يبخل على الوراقين بإرشادهم اليها اذ يرى انهم لا يستحقون ما ينالونه من الربح بطبعها . وكانت له ميزة ثنية في معرفة الخط الكوفي أرشده اليها مقابلة آي القرآن المكتوبة على بعض المساجد والاضرحة في دمشق ومصر وكتاب ممرض الخطوط للآباء اليسوعيين وله إلمام بالحروف العبرية ، وما نشر من مؤلفاته اذا دل على سعة اطلاع فانه لايدل على تحرير وابداع ولا على تفقه في العلم أو تمكن منه

وأما عمله فانه كان قد تولى التعليم في المدرسة الظاهرية ثم عين مفتشا للمدارس الابتدائية العثمانية في سورية فكان فيها مثالا للنشاط والذكاء والنصيحة

ومن عمله انه سعى لدى مدحت باشا الوزير العثماني الاداري الشهير عند ما كان واليا على سورية بإصدار امره بجمع الكتب العلمية المخطوطة المبعثرة في المدارس العلمية والمساجد بدمشق فكانت مكتبة مفيدة وجمع من البيوت ما أمكن جمعه وجعل في قبة ضريح الملك الظاهر وجعل لها قوام وخدمة ونظام مخصوص ، وفي أيام عبد الرؤف باشا والي سورية استحصل على طائفة من الكتب كانت في دور أناس من أعيان دمشق أرجعها الى المكتبة الظاهرية . ثم جعل مفتشا على دور الكتب في سورية وفلسطين فقام بذلك أحسن قيام

ومن مساعيه تأسيس المكتبة الخالدية في القدس الشريف ، وقد عين في آخر أيامه عضوا في المجمع العلمي الذي يرأسه محمد كردعلي في دمشق وناظر المكتبة الظاهرية . وكانت الحكومة عزمت على درس قبر الامام ابن تيمية لوقوعه في حديقة خارج مدينة دمشق فأهاج الرأي العام ضد ذلك وبقي قبر الامام محفوظا بسعيه وعنايته وأظن ان هذه الحادثة وقعت في أيام مدحت باشا ؟